رحلة إلى إقليم مضطهد

مي الهاشمي

وَصلُ
لأخبار المستضعفين من بني الإسلام

حِسَان

رحلة إلى إقليم مضطهد

مي الهاشمي

wasl.news

الإهداء

إلى الذين غابوا ولم يُنسَ صوتهم،

إلى من ساروا في الطرق الوعرة ولم يعودوا،

إلى كلّ أمٍّ تنتظر خلف بابٍ لا يُفتح، إلى الأرض التي تئنّ تحت الصمت،

وإلى الجبال التي تحفظ الأسرار،

إلى الوجوه التي لم تعرف الخوف رغم أن الرعب كان خبزها اليومي،

إلى بلوشستان... حيث يولد الأمل من رماد القهر،

أهديكِ هذه الصفحات،

علّها تكون نبضًا آخر في ذاكرةٍ أُريد لها أن تموت فلم تمت.

مقدمة "وصل"

بين أيدينا "رحلة إلى إقليمٍ مُضطهَد"، خطّتها الفتاة النبيلة مي الهاشمي، من فتيات حِسان، بقلبٍ يفيض مسؤولية، وينبض اهتمامًا بقضايا المسلمين المستضعفين. أفاضت صفحات هذا الكتاب نورًا على إقليمٍ منسيّ، وجزءٍ من خريطة العالم الإسلامي لا يُذكر إلا لمامًا، مع أنّ جراحه غائرة، وصرخاته مكتومة، وحلمه ما يزال يتكسّر عند كل منعطف من منعطفات التاريخ.

في زمنٍ تتوه فيه القضايا العادلة بين ضجيج السياسة وتقلبات الإعلام، تأتي هذه الرحلة لتعيد البوصلة إلى اتجاهاتها الأولى؛ نحو الإنسان الذي يعيش الألم بصمت، ونحو الأرض التي يقتات أبناؤها الأمل رغم أنينها الطويل. لقد آثرت مي أن تنفض الغبار عن هذه البقعة الجريحة، وأن تفتح نافذة يطلّ منها القارئ على عالمٍ يُعاني في الظل، لعلّ كلماتها تكون جسراً يربط القلوب بقضية تستحق أن تُروى وتُعاد روايتها.

هذا الكتاب ليس مجرد رحلة جغرافية، بل هو رحلة وعي، ونداء صادق لإحياء الحسّ الإنساني والإسلامي تجاه الإخوة الذين طالهم الظلم، واستطال عليهم الصمت. ستجد بين صفحاته مزيجًا من الرصد، والتحليل، والانطباعات الوجدانية التي تجعل القارئ شريكًا في الألم، وشاهداً على حقيقةٍ آن لها أن تُسمَع ويُرفع عنها الغطاء.

;

في أقصى الأرض، حيثُ البُعدُ عن العيون، والبُعدُ عـن التقـدّم، والبُعـدُ عـن صخب الحضـارة... يقبـع إقلـيمٌ غـارقٌ في الجـوع والفقـر، مسـكونٌ بـالخوف والقتل والقهر والاضطهاد.

إنه بلوشستان ... الإقليم المغيَّب عن ذاكرة العالم، غير أنّ الظلم لـم يُغَيِّبـه؛ بل عرفه حقّ المعرفة، ووشم ملامحـه على وجـوه أبنائـه ونسـائه، شـبّانه وشيوخه.

فاسأل نفسك: هل مرّ يومٌ وسمعتَ عن هذا الإقليم شيئًا؟

إن لم تفعل، فهلمّ بنا نغـوص معًـا في هـذه الصـفحات، لنبـدأ "رحلـة إلـى إقليم مضطهد".

مي الهاشمي

مقدمة فتاة حِسان، مي

بينما كنتُ أقلب صفحات التواصل الاجتماعي، قبل أكثر من خمس سنوات، استوقفني مقطع لأحد المشايخ، وكان يُلقّب بـ"البلوشي". في تلك اللحظة، سألت نفسي على الفور: من أين يكون أصل هذا الرجل؟ وما معنى هذا اللقب الغريب الذي لم أعتد سماعه كثيرًا؟

لم أبحث عن الشيخ نفسه، بقدر ما شدّني الفضول للبحث عن ذلك اللقب الذي يحمله، وما إن تعمقت في البحث، حتى وجدت نفسي أمام عالمٍ خفيّ، إقليمٍ كامل يُدعى بلوشستان، إقليمٌ لم يكن حاضرًا في ذاكرتي ولا في ذاكرة كثيرين من أبناء الأمة.

إقليمٌ توشّحه الظلم من كل جانب، وغطّاه الفقر والقهر كما تغطّي الرمال أرضًا قاحلة، أرضٌ تعاقبت عليها المآسي حتى كادت أن تُمحى من الذاكرة، وغرقت في متاهات الحياة دون منقذ، ودون التفاتةٍ جادّة من أحد.

وكلما توغّلتُ أكثر في البحث عنه، ازددتُ ذهولًا، كيف يمكن لشعبٍ كامل أن يُحاصر بهذا الشكل، فلا يسمع به العالم، ولا يلتفت إليه الإعلام، ولا يذكره أحد إلا عابرًا في الهوامش؟

عندها أدركت أنّ الكتابة عن بلوشستان ليست مجرد فضول عابر، بل مسؤولية إنسانية، مسؤولية أن نسلّط الضوء على أرضٍ غابت عن أنظارنا، لكنّها لم تغب يومًا عن معاناة الظلم، ومن هنا كانت البداية... ومن هنا كانت رحلة إلى إقليم مضطهد.

أرض تقسمها الغرباء وبقيت جراحها بلا شفاء

قبل أن نغوص في آلام وأحزان وقهر هذا الإقليم، كان لا بد أن نقف قليلًا أمام ملامحه، أمام تلك الأرض التي تتوزعها خرائط ثلاث دول كما تُقتسم فطيرة ساخنة على موائد الغرباء، لم يسأل أحد يومًا عن نصيب أهلها من تلك القسمة، ولم يحفل التاريخ بما خلّفته من جراح في هوية البلوش، كان واجبًا عليّ أن أصف جبالها التي توشك على الصراخ من شدة ما يحل بأبنائها، جبالٌ شامخة لكنها محاصرة، صلبة في ظاهرها لكنها تحمل في أعماقها أنينًا لا يسمعه أحد، وأن أتحدث عن رمالها السمراء التي لم تعد مجرد ذرات صحراء، بل كأنها دفاتر صامتة تحفظ دموعًا ودماء مرّت من فوقها دون أن تترك شاهدًا عليها.

هضابها حزينة كأنها مقابر جماعية للأحلام المؤجلة، وسواحلها الطويلة على بحر العرب ما عادت مجرّد امتداد للماء، بل تحوّلت في مخيلتي إلى بحرٍ من دموع، لو اجتمعت دموع أبناء هذا الإقليم لكانت كافية لملئه.

أي قوم هؤلاء الذين يصبرون على كل ما يمرّ بهم كصبر جبال بلوشستان، وأي قلوب هذه التي اعتادت أن تُحاصر بالألم حتى صارت تحيا به وتتنفسه؟ إن بلوشستان ليست مجرد إقليم على خريطة، بل قصة إنسانية تختصر معنى الغبن حين يكون مصير أمة كاملة منسيًّا خلف الجبال والصحارى.

إقليم شاسع لا يسكنه إلا الصمت

حين تنظر إلى خريطة آسيا، ترى بلوشستان مبسوطة كجسدٍ مرهقٍ تتنازعه ثلاثة أطراف، كل طرفٍ شدّ نصيبه منه وأغلق عليه الحدود، لم يكن التقسيم يومًا اختيارًا للبلوش، بل كان جرحًا سياسيًا قُدّر لهم أن يولدوا به، وما زال ينزف حتى اليوم، تتوزع أرض البلوش بين ثلاث دول: باكستان، إيران، وأفغانستان.

في باكستان، يمتد الإقليم على مساحة تقارب 347,190 كم[2]، أي ما يقارب 44% من مساحة البلاد بأكملها، ومع ذلك، فإن نصيبه من التنمية لا يكاد يُقارن بما يحصل عليه إقليم صغير مثل البنجاب.

وفي إيران، تُعرف المنطقة باسم سيستان وبلوشستان، وتشكل أكثر من 181,000 كم^2 من أراضيها، أي ما يعادل سدس مساحة الدولة تقريبًا، ومع هذا الاتساع، يعيش أهلها بين تهميش سياسي وفقر اقتصادي يضرب بجذوره منذ عقود.

أما الجزء الأصغر، فيتوزع على الجنوب الغربي من أفغانستان، كامتداد طبيعي للجبال والقبائل البلوشية التي لم تعترف يومًا بحدود وُضعت بالمسطرة فوق الورق.

إنها أرضٌ واحدة، لكن الخرائط فرّقتها، كما تُقطّع الوليمة بين غرباء لا يعرفون قيمتها، وكأنّ التاريخ تعمّد أن يجعل من بلوشستان "فطيرةً مقسومة"، يلتهم كل طرف نصيبه ويترك الفتات لأهلها.

ورغم هذا الامتداد الهائل، فإن عدد سكان بلوشستان قليل بصورة لافتة، ففي بلوشستان الباكستانية مثلًا، يعيش حوالي 14 مليون نسمة فقط (أي ما يقارب 5% من سكان باكستان)، بينما المساحة وحدها تساوي تقريبًا نصف البلاد! هذا التناقض بين اتساع الأرض وقلّة البشر جعل الإقليم يبدو على الخرائط كأرض فارغة، بلا كثافة عمرانية، بلا ضجيج يلفت الانتباه.

وربما كان ذلك أحد أسباب نسيانه المتعمّد؛ فالعالم لا يسمع إلا الأصوات العالية، وبلوشستان صوته خافت يضيع وسط جلبة الآخرين.

لكن وراء هذه الجغرافيا الصامتة تختبئ قصة أخرى، فالسكان، رغم قلة عددهم، ليسوا مجرد أرقام في إحصاءات باهتة، إنهم شعوب وقبائل لها

تاريخ يمتد لآلاف السنين، لهم لغتهم البلوشية، وعاداتهم الموروثة، وكرامتهم التي يحاولون حمايتها في وجه كل موجات التذويب والإقصاء.

ورغم أن الخرائط جعلتهم "أقلية" في كل دولة من الدول الثلاث، إلا أنهم في الحقيقة "أمة" تقف فوق واحدة من أوسع بقاع الأرض وأكثرها تنوعًا.

وما يزيد المفارقة قسوة أن المسافات في بلوشستان واسعة إلى حد العزلة، المدن متباعدة، والقرى متفرقة، والطرق وعرة محفوفة بالمخاطر.

السفر من مدينة إلى أخرى قد يستغرق ساعات طويلة بين الجبال والصحارى، ما جعل الناس كأنهم يعيشون في جزر متباعدة داخل أرض واحدة.

هذه الجغرافيا العنيفة زادت من عزلتهم، وأعطت السلطات المركزية في العواصم ذريعة للتقصير والإهمال، وكأنها تقول: "الأرض بعيدة، فلتبقَ منسية".

لقد وُصفت بلوشستان بأنها "أرض بلا صوت". ليست بلا سكان، ولا بلا تاريخ، لكنها بلا صدى.

المساحة الهائلة ابتلعت أصواتهم، والمسافات الطويلة خنقت صرخاتهم، حتى صار صمتها يخيّل للناظر أنه فراغ. لكن الحقيقة أن وراء هذا الصمت أنينًا عميقًا، أنينًا يُشبه هدير الرياح في صحراء لا نهاية لها، تسمعه الأرواح الحساسة ولو تجاهله العالم بأسره.

إن اتساع الأرض ليس دائمًا نعمة، فقد يكون لعنة حين لا تُقابله عدالة في التوزيع ولا إنصاف في الحقوق.

بلوشستان مثال صارخ: نصف مساحة باكستان تقريبًا، ومع ذلك فهي أفقر أقاليمها وأكثرها حرمانًا، مساحات شاسعة في إيران، ومع ذلك أهلها من أكثر الشعوب معاناة من التهميش الطائفي والاقتصادي، قطعة من أفغانستان، لكن لا أحد هناك يلتفت إليهم أصلًا في خضم صراع لا تنتهي.

إنها مفارقة تُثير الدهشة: أرض تساوي في مساحتها دولًا كاملة، لكن أبناؤها يبحثون عن جرعة ماء نظيف وعن مدرسة صغيرة لأطفالهم.

حين نتأمل الخرائط، ندرك أن بلوشستان لم تُظلم فقط بالسياسة، بل أثقلتها الجغرافيا أيضًا. فهي ليست إقليمًا صغيرًا يمكن أن يصرخ فيسمعه الجميع، بل مساحة هائلة ابتلعت صوتها الخاص، ولعلّ أجمل ما يُقال عنها أنها "صحراء ناطقة"؛ ناطقة بمعاناتها وإن بدت للعالم ساكنة.

إن بلوشستان باختصار، هي الإقليم الذي يعكس لنا كيف يمكن أن تكون الأرض شاسعة، والناس قلة، والصوت غائبًا، وكيف يمكن أن يجتمع في مكان واحد: الاتساع والعزلة، الغنى في المساحة والفقر في الاعتبار، هي شهادة حيّة على أن الخرائط ليست محايدة، وأن ما يُرسم على الورق ليس دائمًا انعكاسًا للحقائق، بل قد يكون قيدًا جديدًا على أمة تُركت وحيدة في مواجهة صمتها.

تضاريس متناقضة

حين يُذكَر اسم بلوشستان، يتبادر إلى الذهن أول ما يتبادر صورة جبال شاهقة وصحارى مترامية الأطراف، كأنّ الأرض هناك قد أرادت أن تختبر صبر أهلها منذ الأزل، فأعطتهم أصعب البيئات وأقسى التضاريس، ليعيشوا على حافة التحدي بين الحياة والموت.

الجبال: صرخات صامتة من حجر

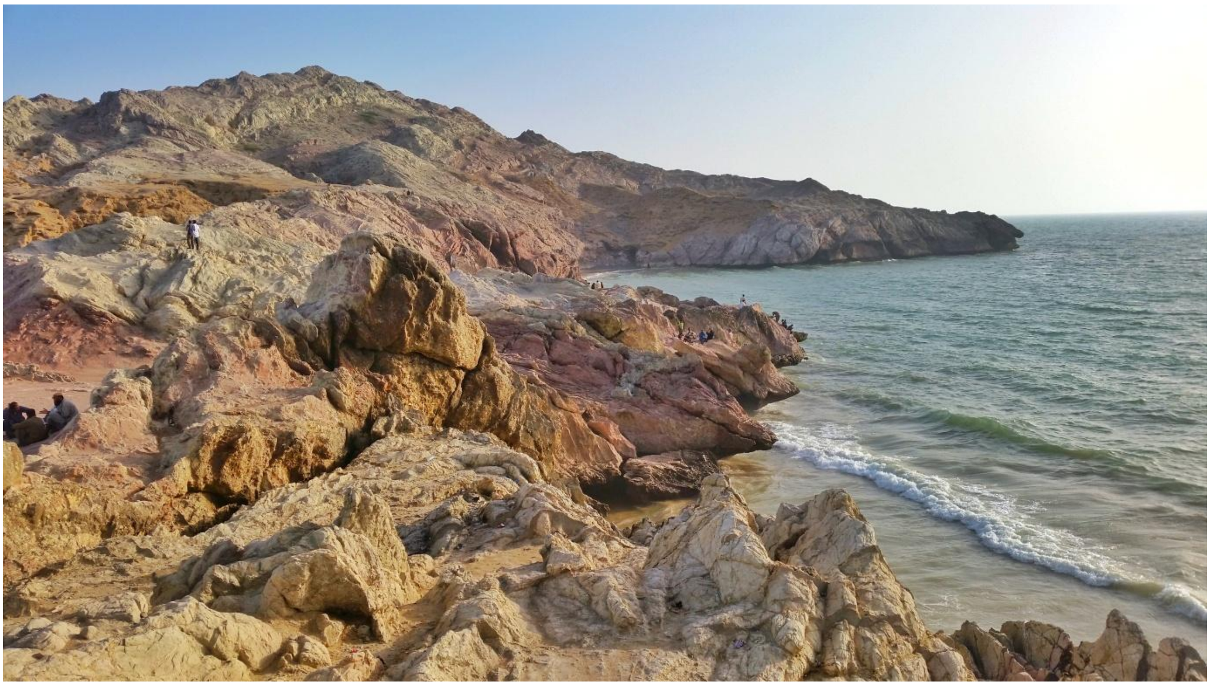

تمتد السلاسل الجبلية على طول بلوشستان، ومن أبرزها جبال كيرثار في الشمال، وجبال مكران التي تحتضن السواحل الجنوبية، وجبال سليمان على الحدود مع أفغانستان، هذه الجبال ليست مجرد تضاريس، بل شاهدة على تاريخ من القسوة، فطبيعتها الوعرة جعلت العزلة قدر القرى المحصورة بينها، حتى بدت كأقفاص حجرية تُقيّد أهلها أكثر مما تحميهم.

لكن هذه الجبال، رغم قسوتها، صارت رمزًا لصمود الإنسان البلوشي، فكما تقف الصخور صلبة في وجه الرياح، وقف البلوش في وجه محاولات الطمس والتذويب، كأنّ الأرض والإنسان قد اتفقا سرًّا على أن يتشاركا المصير: كلاهما يُقهر لكنه لا ينكسر.

الصحارى عطش لا يرويه سوى الصبر

إلى جانب الجبال، تمتد صحارى قاحلة مثل صحراء كَـرَكُرُم وأجزاء من صحراء لوط في إيران، وأراضٍ قاحلة أخرى في باكستان، هناك تصبح الحياة امتحانا

يوميًا، الأمطار نادرة، والأنهار شحيحة، والأرض متشققة كأنها وجوه عجائز أنهكها البكاء. وفي كثير من القرى، يقطع الناس مسافات طويلة بحثًا عن بئر ماء ضحل أو عين نادرة، وغالبًا لا يجدون إلا ماءً مالحًا لا يصلح للشرب.

إنها صحارى لا تعطي إلا من يصبر عليها، ومن المفارقات أن هذه الأرض القاحلة تُخفي في بطنها ثروات نفطية وغازية هائلة.

كأنها تقول لأبنائها: "صبرتم على عطشي، فاصبروا أيضًا على جوعي وأنا أُنهَب دون أن تنالوا من خيري شيئًا".

السواحل بحرٌ من دموع

يمتد ساحل بلوشستان الباكستانية وحده لأكثر من 770 كيلومترًا على بحر العرب، محتضنًا واحدًا من أهم الموانئ الإستراتيجية في العالم: ميناء جوادر هذا الساحل الواسع كان يمكن أن يكون شريان حياة، لكنه تحوّل إلى شاهد على التهميش.

فبينما تتجه أنظار العالم إلى جوادر كحلقة وصل في "طريق الحرير الجديد"، يعيش صيادو القرى الساحلية في فقر مدقع، يعجزون حتى عن

امتلاك قوارب مجهزة، البحر أمامهم واسع، لكنه في نظرهم بحر من الدموع؛ لأن خيراته تذهب بعيدًا بينما موائدهم تبقى خاوية.

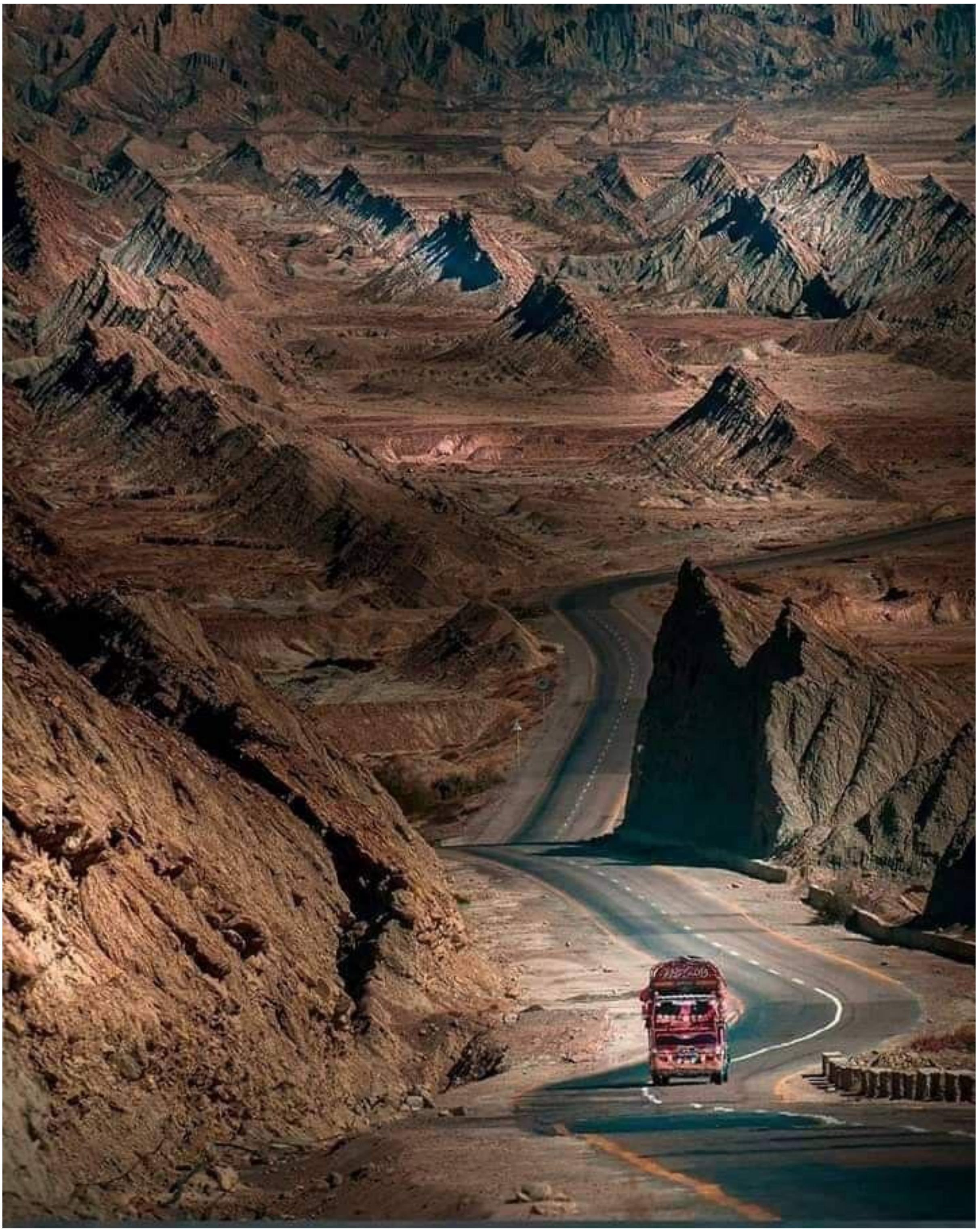

التناقض المرير: تجمع تضاريس بلوشستان بين كل المتناقضات

جبال شاهقة تعطي شعورًا بالعظمة، لكنها تعزل الناس في وديان موحشة، صحارى ممتدة تعكس اتساع الأرض، لكنها تقتل العطش في القلوب قبل الأجساد، سواحل بحرية تمنح الانفتاح على العالم، لكنها مغلقة بوجه أصحابها.

إنها أرض تقول شيئًا وتفعل عكسه، وكأنها تضحك بسخرية مرة على أبنائها:

"أعطيتكم الجبال لتكون حصونًا، فإذا بها سجنتكم، أعطيتكم البحر ليُغنيكم، فإذا به يذكّركم بفقركم، أخفيت في جوفي كنوزًا، فإذا بها تُنهب أمام أعينكم".

الطبيعة والإنسان: حكاية صبر واحد

وما يثير الدهشة أن الإنسان البلوشي صار صورة أخرى لتلك الطبيعة المتناقضة، فكما تقف الجبال صامدة رغم ما ينهشها، يقف هو ثابتًا رغم القهر، وكما تتحمل الصحراء جفافًا طويلًا ثم تُنبت فجأة وردة برية، يتحمل هو سنين الحرمان ثم يثور كبركانٍ لا يُطاق.

إن التضاريس هنا ليست مجرد خلفية جغرافية، بل شريك في المعاناة، وكأنها تشهد مع أهلها أمام التاريخ: "لقد جرّبنا كل أشكال القسوة، وصمدنا، فهل سيسمع أحد أنيننا؟".

ثروات في الأغلال

في ظاهر الأرض، يبدو إقليم بلوشستان وكأنه قطعة منسية من العالم، أرضٌ قاحلة يكسوها الغبار وتلفّها الجبال الوعرة، لكن في باطنها تختبئ كنوز لا تُقدّر بثمن، إنها أرض تحمل على ظهرها الفقر، وفي أعماقها الغنى، أرض يمدّ أبناؤها أيديهم طلبًا للخبز والماء، بينما تُصدّر باطنها ذهبًا ونحاسًا وغازًا ونفطًا تكفي لإغناء أمم بأكملها، وهنا تبدأ المفارقة التي تُعرّي كل أشكال الظلم، أن يكون الفقر سيّدًا فوق عرش الثروة.

الغاز: نار تشتعل بعيدًا عن أهلها

منذ عام 1952، حين اكتُشف الغاز الطبيعي لأول مرة في منطقة سوّي ببلوشستان، أدركت باكستان أنها وجدت شريانًا يغذي اقتصادها لسنوات طويلة، واليوم تساهم حقول سوّي وحدها بأكثر من 30% من احتياجات باكستان من الغاز، لكن أي مفارقة أعظم من أن القرى المحيطة بالحقول نفسها ما زالت تفتقر إلى الكهرباء والغاز المنزلي؟ في مشهد يوجع القلب، تجد أنابيب الغاز العملاقة تمر بجوار أكواخ طينية، يطبخ أهلها طعامهم بالحطب وروث الحيوانات، طفل يدرس على ضوء شمعة، فيما أنبوب الغاز الذي يمكن أن يضيء مدنًا كاملة يمر على بعد أمتار من نافذته المظلمة. كأن الغاز هناك يختار أن يخدم الجميع إلا أصحابه، وكأن لسان حاله يقول:"أضيء لغيركم بريقًا، وأترككم في عتمةٍ لا تنتهي".

الذهب والنحاس كنوز مرهونة للغريب

في عمق صحراء بلوشستان تقبع ثروة أخرى تُثير أطماع العالم: "مشروع ريكو ديك". تشير التقديرات إلى أنه يحتوي على 5.9 مليار طن من خام النحاس و41.5 مليون أوقية من الذهب، ما يجعله من أضخم مناجم المعادن في العالم. لكن السؤال المرير: لمن تُستخرج هذه الثروات؟

لقد تنازعت الحكومات والشركات الأجنبية لعقود على هذا المشروع، حتى صار رمزًا للنهب أكثر من كونه رمزًا للتنمية، بينما أهل القرى القريبة منه يفتقرون لمستوصف صحي صغير، كانت عقود الاستثمار تُبرم بمليارات الدولارات في عواصم بعيدة.

وليس ريكو ديك وحده، فهناك أيضًا مشروع ساندك الذي ينتج النحاس والذهب منذ سبعينيات القرن الماضي، ومع ذلك، ما زال عمال المناجم يشتكون من سوء ظروف العمل وتدني الأجور، إنهم يعملون في جوف أرضهم كغرباء، يقتلعون كنوزها لكنهم لا يرون بريقها.

جوادر: البحر الذي صار نافذة للعالم وسجنًا لأهله

وعلى الساحل الجنوبي، يقف ميناء جوادر شاهدًا آخر على مفارقات بلوشستان، يُنظر إليه عالميًا كأحد أهم الموانئ الاستراتيجية في القرن الحادي والعشرون، لكونه جزءًا أساسيًا من "الممر الاقتصادي الصيني-الباكستاني".

لكن حين تزور القرى المحيطة به، ترى فقرًا مدقعًا لا يليق بمدينة يُقال إنها ستصبح "دبي الجديدة".

صياد يعود من البحر بخفيّ حنين، بعدما صارت مناطق الصيد التقليدية تحت سيطرة الشركات الكبرى، أسرٌ تُهدم بيوتها لإفساح الطريق للمشاريع،

دون أن تُعطى بديلًا كريمًا. إن جوادر بالنسبة لأبنائه أشبه بمرآة ساخرة، يرون فيه سفن العالم وهي ترسو محملة بالبضائع، بينما موائدهم تبقى فارغة.

بين الأرض والإنسان: ثروات لا تُطعم جائعًا

لا تقف ثروات بلوشستان عند الغاز والذهب والبحر، فهناك الفحم، واليورانيوم، والحديد، والرخام، وحتى الملح الذي يملأ الصحارى، لكن الحصيلة النهائية واحدة، لا شيء منها يترجم إلى رفاهٍ حقيقي للسكان.

تشير الإحصاءات إلى أن نسبة الفقر في بعض مناطق بلوشستان تتجاوز 70%، وأن معدل الأمية هو الأعلى في باكستان، كيف يُعقل أن يكون هذا حال إقليم يُصدّر من باطنه ما يكفي لإقامة حضارات؟

يقول أحد الشيوخ البلوش في مقابلة قديمة: "نحن نعيش فوق بحر من الثروات، لكننا نموت عطشًا وجوعًا، ثروتنا لعنة علينا، لأنها السبب في صراع لا ينتهي، ومطامع لا ترحم."

مفارقة مُرّة: الثروة سبب القهر

قد يتساءل قارئ بعيد: لو لم تكن بلوشستان غنية بكل هذه الكنوز، هل كان أهلها سيُعانون كل هذا القهر؟ والجواب -كما يرى كثير من المحللين- هو أن الفقر في الأرض قد يجلب النسيان، لكن الثروة تجلب الأطماع، ولو كانت هذه الأرض مجرد صحراء قاحلة بلا معادن ولا غاز، لربما تُركت وشأنها. لكن لأن في بطنها الذهب، ولأن على ساحلها ميناء استراتيجيًا، ولأن في جوفها غازًا يشعل مصانع باكستان، صارت ضحية لعبة كبرى، لعبة لا مكان فيها لصوت الفقراء، بل لمصالح الدول والشركات.

صرخة الأرض

ولو كان للأرض لسان، لقالت: "أخفيت في جوفي كنوزًا لأبنائي، لكنهم حُرموا منها، أخرجوا ذهبي ونحاسي، فازدادت قراهم فقرًا، شقوا أنابيب الغاز في صدري، فبقيت بيوتهم مظلمة، فتحوا بحري للعالم، فأغلقوه على أهلي، أي ظلم أعظم من أن تكون أرضًا غنية وأهلها أفقر الفقراء؟".

جذور في الرمال و تاريخ شعبٍ لا يُنسى

قبل أن نغوص في آلام بلوشستان الحاضرة، لا بد أن نعود إلى الوراء قليلًا، إلى صفحاتٍ خطّها الزمن على جبالها وصحاريها، إلى تاريخٍ لم يُكتب في دفاتر الأمم إلا شذرات، لكنه محفور في ذاكرة أهلها كما تُحفر النقوش على الصخور.

إنّ الحديث عن بلوشستان ليس مجرد استعراض لحدودٍ جغرافية أو مواردٍ منهوبة، بل هو عودةٌ إلى جذورٍ تمتد في عمق الرمال، إلى شعبٍ ظلّ يقاوم طمس هويته عبر القرون.

منذ قرون طويلة، قبل أن يُعرف الاحتلال الغربي ويقسّم الخرائط بخطوطٍ اعتباطية، كان البلوش يعيشون في أرضهم الممتدة بين الجبال والبحر.

أمةٌ بدوية الطبع، مقاتلة بالفطرة، عاش أبناؤها على الكرامة كما عاشوا على الرعي والتجارة، يتنقلون بين الصحارى والواحات، يرفعون راياتهم الخاصة ويشكّلون إماراتٍ صغيرةً تحكمها تقاليدهم وقوانينهم القَبَلية.

لكن القدر لم يمهلهم طويلًا؛ فمع مطلع القرن التاسع عشر، بدأ النفوذ البريطاني يزحف على المنطقة، وكانت بلوشستان جزءًا من اللعبة الكبرى بين الإمبراطوريات. لم يكن البلوش حينها مجرد قبائل متفرقة، بل كانوا شعبًا يعرف هويته جيدًا، يُتقن لغته الخاصة، ويتمسك بعاداته التي لا تزال حيّة حتى اليوم.

غير أن الخرائط تغيّرت، والأرض تقاسمتها الدول، لتجد بلوشستان نفسها فجأة ممزّقة بين ثلاث رايات: باكستان، إيران، وأفغانستان.

لقد كان الانقسام بمثابة جرح غائر في جسد الأمة البلوشية، جرح لم يلتئم منذ ذلك الحين، فبينما تتحدث كتب التاريخ عن استقلال الهند وباكستان عام 1947، كان هناك شعب آخر يُسلب استقلاله في اللحظة ذاتها، إذ أُلحِق الجزء الأكبر من بلوشستان بباكستان دون استفتاءٍ حقيقي ولا صوتٍ لأهلها، ومنذ تلك اللحظة، بدأ تاريخ طويل من المقاومة والخذلان.

إنّ القصة هنا ليست قصة أرضٍ ضُمّت قسرًا فحسب، بل هي قصة هويةٍ أُريد لها أن تُمحى، ولغةٍ كادت أن تُدفن، وثقافةٍ صارت مهددة بالزوال تحت ضغط سياسات التذويب.

ومع ذلك، فإنّ البلوش ظلوا كما وصفهم أحد الرحّالة الإنجليز: "شعبٌ قد يضعف بالسيف، لكنه لا ينكسر بالروح."

اليوم، حين نتأمل حاضر بلوشستان، نجد أن كل آلامها السياسية والاجتماعية ليست إلا امتدادًا لذلك الماضي، امتدادًا لخطوطٍ رُسمت على الورق في غرفٍ مغلقة، دون أن يُسأل أصحاب الأرض عمّا يريدون.

وما زالت الرمال تحفظ آثار أقدام الأجداد، وما زالت الجبال تردد صدى أصواتهم، كأنهم يقولون لأبنائهم: "لا تنسوا أنكم كنتم يومًا أمةً واحدة، حتى وإن قسّمتكم الخرائط."

الهوية البلوشية

من الصعب أن نتحدث عن بلوشستان دون أن نتوقف عند هوية شعبها؛ تلك الهوية التي ظلت عصيّة على الذوبان رغم ما مرّت به من محنٍ وتقسيماتٍ سياسية. فالبلوش، الذين يُقدَّر عددهم اليوم بما يزيد على خمسة عشر مليونًا موزعين بين باكستان وإيران وأفغانستان، يشكّلون أمةً متجذّرة في التاريخ، لها لغتها الخاصة، وعاداتها الراسخة، وقيمها التي لا تزال نابضة حتى اللحظة.

اللغة

اللغة البلوشية ليست مجرد وسيلة تواصل، بل هي ذاكرةٌ تحفظ تفاصيل الحياة اليومية وملامح الشخصية الجمعية.

تنتمي هذه اللغة إلى العائلة الإيرانية من اللغات الهندو-أوروبية، لكنها تطورت بخصوصية جعلتها مزيجًا فريدًا من الكلمات والتراكيب.

فهي لغة تحمل في طياتها نَفَس الصحراء وإيقاع البحر، وتُختزن فيها أساطير الجدّات وأشعار المحاربين.

لقد حاولت السياسات الرسمية في إيران وباكستان تهميش هذه اللغة لصالح الفارسية أو الأوردية، لكن البلوش لم يتخلوا عنها، بل استمروا في تعليمها شفهيًا لأبنائهم، يورّثونها كما يُورّثون الأسماء والأنساب، فهي بالنسبة لهم ليست مجرد أصوات، بل وطنٌ آخر يحتمون به حين يُسلب منهم وطنهم الحقيقي.

ولعل أجمل ما يقال هنا ما ذكره الباحث "برايان سبونير" في دراسته عن البلوش: "حين يُسلب البلوش أرضهم، يبقى لسانهم آخر معاقلهم." كما أنَّ التنوّع اللهجي داخلها كبير، ويمكن القول إنّها تتفرّع إلى ثلاث مجموعات رئيسية - الغربية، الجنوبية، والشرقية - كلّ منها يحمل نكهة أرضه ولهجته وتأثير الجوار اللغوي المحيط به. هذا التنوّع ليس نقصًا، بل شهادة على أن اللغة بِنَت نفسها في ظروف جغرافية قاسية، بين جبالٍ وصحارى وسواحل، فتعددت اللهجات كما تعدّدت الملاحم القبلية وحكايا الشتات.

العادات

يُعرف البلوش بأنهم شعب قبلي في جوهره، حيث تُحدد القبيلة هوية الفرد وتمنحه انتماءه، ورغم أن العالم من حولهم تغيّر، ظلّ النظام القبلي عندهم حاضرًا بقوة، يحكم العلاقات الاجتماعية والسياسية معًا، فالولاء للقبيلة يعلو على كل انتماء للخريطة، وهو ما حفظ تماسك المجتمع البلوشي في مواجهة محاولات التفتيت والاضطهاد، ومن القيم التي لا تكاد تخلو منها أي أسرة بلوشية: الكرامة، الشرف، وحماية الضيف.

فهي قيم ليست شعارات بل واقعٌ يُعاش يوميًا، فإذا نزل ضيف على بيت بلوشي، صار في حمى العائلة كلها، ولو كلّفهم ذلك أرواحهم.

أما المرأة البلوشية، فمركزها محفوظ في المجتمع، ليست غريبة عن المشهد كما يُظن، فهي شريكة في تربية الأبناء، وحافظة للتقاليد، وناقلة للغة عبر الأجيال. وفي أغانيها الشعبية، تحفظ ذاكرة قومها، فكل أغنية عندهم أشبه بسجلٍّ تاريخي يختزن أحداثًا وذكريات.

الصمود

قد يظنّ البعض أن الهوية البلوشية مهددة بالذوبان وسط ضجيج الحداثة والعولمة، لكن الحقيقة أن كل محاولات الطمس لم تزدها إلا رسوخًا. فبدل أن تندثر لغتهم، نرى اليوم محاولات لإحيائها من الأدب والكتابة والإعلام الجديد، وبدل أن تُمحى عاداتهم، صارت رمزًا للافتخار أمام العالم. إن الصمود عند البلوش ليس خيارًا، بل ضرورة وجودية، ولعلنا نستحضر هنا مقولة أحد شعرائهم:"إذا كانت الأرض تُسلب، فإن الكلمة تبقى سيفنا الأخير."

وهكذا، فإن الهوية البلوشية ليست ماضٍ يُحكى، بل حاضرٌ يُعاش ومستقبلٌ يُبنى. هي درعٌ في وجه التذويب، وصوتٌ في زمن الصمت، وأغنيةُ صحراءٍ لا تنطفئ أصداؤها.

التاريخ السياسي المبكر

إذا كانت هوية البلوش هي درعهم الحامي، فإن تاريخهم هو السيف الذي طالما رفعوه في وجه الطامعين، فمنذ قرون بعيدة، لم تكن بلوشستان أرضًا سائبة تنتظر من يقتسمها، بل كانت موطنًا لكيانات سياسية محلية، إمارات وسلطنات صغيرة حكمت أقاليمها وفق عُرف القبيلة وقوانين الشرف، وبسطت نفوذها على طرق التجارة المارة عبر الجبال والسهول.

الإمارات البلوشية

تذكر المصادر أن البلوش أقاموا لأنفسهم حكمًا محليًا منذ القرن السابع عشر، وكان أبرزها إمارة قلات التي صارت رمزًا للسيادة البلوشية، فقد حكمتها أسرٌ متعاقبة، وأقامت نظامًا يجمع بين الحكم القبلي والتقاليد الإسلامية، واستطاعت أن تُثبت حضورها السياسي رغم ضعف الموارد وضغط الجيران، وكانت قلات بمثابة القلب النابض الذي يجمع القبائل حوله، في مواجهة أي خطر خارجي.

لم تكن هذه الإمارات تملك جيوشًا ضخمة، لكنها اعتمدت على المقاتلين القبليين الذين يجيدون حرب العصابات في الجبال والوديان، فكانوا عصيّين على الغزاة، يعرفون أرضهم كما يعرفون أنفاسهم.

وقد وصف أحد الرحالة الإنجليز في القرن التاسع عشر البلوش بقوله: "إنهم مقاتلون أشداء، يذوبون في الجبال كالماء، ثم ينقضون كالبرق على خصومهم."

البلوش والتجارة

لم يكن البلوش أهل قتال فقط، بل كانوا أيضًا أهل تجارة وبحر، فموقع بلوشستان الاستراتيجي جعل منها ممرًا للتجار بين الهند وإيران والخليج العربي، ومن موانئها القديمة على بحر العرب، كانت القوافل البحرية

تنطلق محملة بالتوابل والتمور والجلود، لتصل إلى مرافئ البصرة ومسقط وزنجبار، وهذا الحضور التجاري جعل للإقليم قيمة مضاعفة، وجعل الطامعين يضعون أعينهم عليه باكرًا.

الأطماع الخارجية

ومع تزايد النفوذ الاستعماري في آسيا خلال القرن التاسع عشر، تحولت بلوشستان إلى ساحة صراع بين الإمبراطوريات، فقد نظر إليها البريطانيون باعتبارها حائطًا دفاعيًا للهند، جوهرتهم الثمينة، بينما رآها الإيرانيون امتدادًا طبيعيًا لحدودهم الشرقية، ولم يترددوا في بسط نفوذهم على بعض مناطقها، أما الأفغان، فكانوا يعدّونها مجالًا طبيعيًا لتوسّعهم جنوبًا.

لقد كانت بلوشستان أشبه بقطعة شطرنج في لعبة "المسألة الشرقية"، حيث تتصارع القوى العظمى على كل شبرٍ منها، ولم يكن للبلوش، وهم أصحاب الأرض، رأيٌ في تلك اللعبة، فكانوا كلما حاولوا أن يثبتوا استقلالهم، وجدوا أنفسهم بين فكي كماشة:

ضغط خارجي من الإمبراطوريات، وضغط داخلي من الخلافات القبلية.

إرهاصات الانقسام

ومع دخول البريطانيين إلى المنطقة، بدأت ملامح الانقسام تظهر، فقد وقع بعض زعماء القبائل معاهدات مع الإنجليز حفاظًا على مصالحهم، بينما قاوم آخرون بشراسة.

ومع مرور الوقت، أخذ الاحتلال يرسّخ وجوده شيئًا فشيئًا، حتى أصبحت بلوشستان خاضعة لنفوذ بريطاني غير مباشر عبر إمارة قلات.

لكن، ورغم هذا النفوذ، ظل البلوش يرفضون الاعتراف بسيطرة أي قوة أجنبية عليهم، وكانوا ينظرون إلى قلات كرمز لسيادتهم، وهذا ما سيجعل

مسألة ضم بلوشستان إلى باكستان فيما بعد قضية شائكة، لأنها ستُعتبر سلبًا لسيادةٍ كانوا يتمسكون بها منذ قرون.

التاريخ يكتب بالدم

حين نقرأ صفحات التاريخ البلوشي المبكر، ندرك أنها لم تُكتب بالحبر وحده، بل بالدماء والدموع، فهي قصة شعبٍ حاول أن يقيم لنفسه وطنًا مستقلًا، لكن أطماع الجيران والاحتلال حالت دون ذلك.

ومع ذلك، بقيت الذاكرة الجمعية للبلوش حية، تُذكّرهم دومًا بأنهم لم يكونوا مجرد أقلية ضائعة، بل أمة لها جذورها وكياناتها السياسية.

وهكذا، فإن التاريخ السياسي المبكر لبلوشستان ليس مجرد ماضٍ بعيد، بل هو المفتاح لفهم الحاضر، فمن لا يعرف أن البلوش حكموا أنفسهم يومًا، لن يدرك لماذا يرفضون اليوم كل محاولات إذابتهم أو إقصائهم.

الاحتلال البريطاني والتقسيم

حين نتحدث عن بلوشستان في القرن التاسع عشر، لا يمكننا تجاهل النفوذ البريطاني الذي غزا المنطقة، ليس فقط بالقوة العسكرية، بل بالسياسات الذكية التي جعلت من الإمارة البلوشية لعبة على رقعة الشطرنج الكبرى في جنوب آسيا. فقد رأت بريطانيا أن بلوشستان، بموقعها الاستراتيجي على طرق الهند-إيران-الخليج، تمثل جسرًا حيويًا لحماية مستعمراتها وممرًا آمنًا لشحن البضائع والجنود، فضلاً عن كونها حاجزًا ضد النفوذ الروسي في آسيا الوسطى.

المعاهدات والتحالفات

بدأ البريطانيون بعقد اتفاقيات منفصلة مع زعماء القبائل والإمارة الرئيسية، خصوصًا إمارة قلات، تحت ذريعة حماية استقلالها، في ظاهر الأمر، بدت هذه المعاهدات وكأنها تمنح البلوش سيادتهم، لكنها في الحقيقة كانت أداة للسيطرة غير المباشرة، فكل قرار سياسي أو تحرك عسكري كان يمر بموافقة الإنجليز، وكانوا هم من يحددون حدود النفوذ ويستثمرون موارد الإقليم.

خرائط غريبة، حدود غير طبيعية

إحدى أهم الخطوات التي شكلت مأساة بلوشستان حتى اليوم كانت رسم الخرائط بطريقة اعتباطية، فالقلم البريطاني قسم الأرض وكأنها قطعة شطرنج، دون مراعاة للقبائل واللغات والتقاليد التاريخية.

الأراضي التي عاشتها القبائل لقرون وجدت نفسها فجأة تحت سيادة دولة أخرى، أو مقسومة بين إيران وباكستان وأفغانستان.

هذا الانقسام لم يكن مجرد تغيير سياسي، بل طعنة في جسد الأمة البلوشية، إذ حُرمت القبائل من التواصل الطبيعي فيما بينها، وتشتت النسيج الاجتماعي والثقافي الذي حافظ على هويتها.

المقاومة المستمرة

لم يكن البلوش مجرد متفرجين على هذا الطمس التاريخي، فقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ثورات محلية ومقاومة مستمرة ضد النفوذ البريطاني، قادتها القبائل والزعماء التقليديون، وقد اعتمدوا على تكتيكات المقاومة البسيطة والحروب الخاطفة التي استمرت لعقود، وكأن كل جبل وكل وادٍ في بلوشستان أصبح حصنًا يصدّ أي محاولة للسيطرة الكاملة.

إرهاصات تقسيم ما بعد الاستقلال

ومع اقتراب عام 1947، واستقلال الهند وباكستان، بدأت مرحلة جديدة من الانقسام السياسي، لم يكن البلوش مستعدين لقبول قرارات تُفرض عليهم من عواصم بعيدة، لكن الواقع كان أن الخرائط الجديدة حددت مصيرهم دون استفتاء أو مشاركة فعلية، أُلحق الجزء الأكبر من بلوشستان بباكستان، في خطوة أثارت سخط معظم القبائل والزعماء المحليين، إذ اعتُبرت سلبًا لسيادتهم التاريخية.

كان هذا الانقسام بمثابة نقطة التحول الكبرى من إقليم له استقلال نسبي ومقاومة متواصلة، إلى إقليم تحت ضغط دولة مركزية قوية، تضيق على مطالبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتفرض عليه قوانين لم يُسمح له بالتصويت عليها أو التفاوض بشأنها.

أثر الاحتلال والتقسيم على الهوية

وبينما تُظهر الخرائط الرسمية سيطرة دولة باكستان على بلوشستان، فإن الواقع على الأرض يعكس صراعًا مستمرًا بين الهوية البلوشية الأصيلة والرغبة في الاستقلال أو المطالبة بالحقوق، فالأجيال الجديدة لم تنسَ قصص المقاومة، ولم تنسَ كيف حاولت قوى خارجية وأحيانًا داخلية طمس لغتهم وثقافتهم وحقوقهم.

ويقول أحد المؤرخين: "التقسيم لم يكن مجرد فصل الأراضي، بل فصل شعوب عن تاريخها وحقوقها، والبلوشي ما زال يعاني صدى ذلك الفصل حتى اليوم."

وهكذا، فإن الاستعمار البريطاني والتقسيم لم يقتصر تأثيرهما على القرن الماضي فحسب، بل شكّلا قاعدة كل الصراعات الحالية في بلوشستان، الأرض التي عاش عليها البلوش لأجيال، أصبحت اليوم مسرحًا للصراع بين حقوق السكان الأصليين ومصالح الدول الكبرى، بين التاريخ والخرائط، بين إرادة الإنسان والقرارات السياسية.

بداية الثورات والتمردات

لم يكن ضمّ بلوشستان إلى باكستان سنة 1948 مجرد حدث سياسي عابر، بل كان زلزالًا هزّ وجدان البلوش بأكملهم. ففي لحظة واحدة وجدوا أنفسهم وقد انتُزعت سيادتهم التاريخية، تلك السيادة التي امتدت قرونًا عبر حكم الخانات والقبائل، لتُختزل في توقيع سياسي أُجبر عليه خان قلات تحت ضغط السلاح والوعود الكاذبة. كان ذلك الضم بمثابة "كسر العمود الفقري" لأمةٍ عُرفت بصلابتها واعتزازها بحريتها، فكيف لا يأتي الرد سريعًا؟

شرارة عبد الكريم خان

لم تمضِ سوى أشهر قليلة حتى خرج الأمير عبد الكريم خان - شقيق خان قلات - معلنًا رفضه القاطع لهذا الضم، ومطلقًا أول ثورة مسلحة في تاريخ بلوشستان الحديث. لم يكن يملك جيشًا منظمًا ولا سلاحًا متطورًا، بل اعتمد على عشرات المقاتلين البلوش الذين لبّوا نداءه، حاملين معهم بنادق قديمة وبعض الأسلحة البيضاء، لكنهم حملوا أيضًا في قلوبهم وقودًا لا ينطفئ: الإيمان بعدالة قضيتهم.

قاد عبد الكريم رجاله إلى الجبال الوعرة في بلوشستان الجنوبية، متخذًا منها قاعدة للمقاومة. كانت تحركاته أشبه بعمليات "حرب عصابات"،

ضربات سريعة ضد مواقع الجيش الباكستاني، ثم انسحاب إلى المخابئ الجبلية. ورغم محدودية هذه العمليات، فإنها أربكت الدولة الوليدة التي لم تتوقع أن تجد نفسها في مواجهة ثورة مسلحة بعد شهور فقط من استقلالها عن بريطانيا.

لقد أراد عبد الكريم أن يرسل رسالة واضحة: بلوشستان لم تدخل باكستان طوعًا، وأبناؤها لن يستسلموا بسهولة. وكأن صوته كان يقول للعالم: "لسنا صحراءً بلا أصحاب، ولسنا أرضًا تُضم كالغنيمة، نحن أمة لها حق السيادة، وستقاتل من أجله".

قسوة القمع وضعف الإمكانات

لكنّ الثورة لم تعمّر طويلًا. فمع ضعف التمويل وغياب أي دعم خارجي، وجد عبد الكريم نفسه أمام جيش منظم ومدجّج بالسلاح. سرعان ما أُخمدت الانتفاضة، واضطر الأمير إلى الانسحاب خارج البلاد بعد ملاحقات قاسية. غير أنّ قمع الثورة لم يُنهِ جذوتها في قلوب البلوش، بل أشعلها أكثر. فالدماء التي سالت في الجبال والوديان صارت وقودًا لذاكرة جماعية لا تنسى، وولّدت شعورًا عميقًا بأن بلوشستان دخلت مرحلة "احتلال جديد" لا يختلف كثيرًا عن الاحتلال البريطاني.

إرث لا يموت

أدرك البلوش أن ثورتهم الأولى لم تكن إلا البداية، لكنهم تعاملوا معها كما يتعامل الفلاح مع بذرة يزرعها في أرض قاحلة. قد لا تعطي ثمارها سريعًا، لكنها تترسخ في عمق التربة، وتنتظر موسمًا آخر لتزهر. وهكذا صارت ثورة عبد الكريم رمزًا خالدًا، يستشهد به كل جيل من المقاومين البلوش: "لقد بدأنا الطريق عام 1948، ولن نعود منه حتى نصل".

لقد أثبتت هذه الانتفاضة - رغم محدوديتها - أن البلوش أمة عصية على الاستسلام. حتى حين خسروا المعركة عسكريًا، كسبوا المعركة المعنوية، إذ برهنوا أن صوتهم لن يُدفن في الرمال. بل إن فشل الثورة الأولى جعل الدولة الباكستانية تدرك أنها ستواجه خصمًا عنيدًا، وأن الإقليم لن يكون مجرد قطعة جغرافية صامتة.

بين الرمزية والواقع

لا يمكن قراءة ثورة 1948 بمعايير "النصر والهزيمة" فقط، فهي لم تكن مجرد مواجهة عسكرية، بل كانت صرخة رمزية بحجم أمة. لقد قالت للعالم إن هناك شعبًا يُدعى "البلوش"، له قضية وحقوق، وأن هذه الحقوق ستظل تطفو على السطح مهما حاولت السياسات طمسها. وكأنها كتبت الصفحة الأولى في كتاب طويل عنوانه: "بلوشستان تقاوم".

إن بداية الثورات في هذا الإقليم تشبه أول صرخة رضيع: ضعيفة في صوتها، لكنها تحمل في طياتها معنى الحياة. ورغم أن عبد الكريم لم ينجح في تحرير الأرض، إلا أنه نجح في تحرير الوعي. فقد زرع في نفوس قومه يقينًا بأنهم أصحاب حق، وأن التمرد على الظلم قدر محتوم لا مفر منه.

سياسة التهميش والإقصاء

إذا كانت ثورة عبد الكريم خان عام 1948 قد مثّلت ردّ الفعل الفوري على الضم القسري، فإن ما تلاها من سياسات متعمدة جعلت جراح البلوش

أعمق، ورسّخت شعورهم بأنهم ليسوا جزءًا متساويًا من الدولة الجديدة، بل مجرد "إقليم ملحق" يُستنزف خيراته ويُقصى أهله عن أبسط حقوقهم. لقد تبنّت الحكومات الباكستانية المتعاقبة ما يمكن وصفه بسياسة التهميش الممنهج، سياسة لم تكن عشوائية أو عرضية، بل سارت بخطى مدروسة، حتى غدت جزءًا من الوعي البلوشي المقهور.

إقصاء في مؤسسات الدولة

منذ البداية، جرى تهميش البلوش في مؤسسات الدولة المركزية. في الجيش، حيث تُصاغ القرارات الكبرى، كان وجودهم شبه معدوم. وفي الوزارات والإدارات العليا لم يُمنحوا تمثيلًا عادلًا. لقد كانوا دومًا أقلية في المناصب المؤثرة، وكأن الدولة تعمّدت أن تضعهم على الهامش، فلا صوت لهم في صنع القرار، ولا وزن لهم في رسم السياسات.

كم من شاب بلوشي مؤهل جرى إقصاؤه لصالح آخر من إقليم البنجاب أو السند! وكم من منصب سيادي ظل حكرًا على غيرهم! هذه السياسة صنعت قطيعة نفسية عميقة بين البلوش والدولة. فكيف يُطالب المرء بالولاء لدولة تعامل أبناءه وكأنهم غرباء في وطنهم؟

ثروات تُنهب وأفواه جائعة

لكن الطعنة الأعمق لم تكن في غياب التمثيل السياسي، بل في نهب الثروات. فمنذ اكتشاف الغاز الطبيعي في بلوشستان في خمسينيات القرن الماضي - خصوصًا في منطقة سوّي (Sui) - صار الإقليم مصدرًا رئيسيًا للطاقة في باكستان. غير أن المفارقة الصادمة أن القرى المحيطة بآبار الغاز نفسها بقيت محرومة من الكهرباء!

كانت غازات بلوشستان تُنقل عبر الأنابيب لتضيء بيوت كراتشي ولاهور وإسلام آباد، بينما بقي أطفال البلوش يدرسون على ضوء الشموع أو في عتمة الليل. وكأن الإقليم كُتب عليه أن يكون "خزانًا لغيره" لا لأهله.

ولم يتوقف الأمر عند الغاز. فالأرض البلوشية غنية بالمعادن: الفحم، النحاس، الذهب، والرخام، لكن نصيب أبنائها منها كان الفقر المدقع. شركات التنقيب - المحلية والأجنبية - كانت تأتي لتحفر وتستخرج، ثم ترحل محملة بخيرات الأرض، تاركة خلفها القرى البلوشية غارقة في العطش والبطالة.

إنـماء الآخرين وتخلّف البلوش

وإذا انتقلنا إلى ملف التنمية، وجدنا التناقض الصارخ. فالمشاريع الكبرى كانت تُنفذ في الأقاليم الأخرى: طرق، مطارات، مصانع، جامعات. أما بلوشستان، فقد بقيت على حالها، صحارى ممتدة وقرى متهالكة بلا بنية تحتية.

لم يُخصص لها نصيب عادل من الموازنة، ولم تُنفذ فيها المشاريع بما يتناسب مع مساحتها الشاسعة ومواردها الهائلة. لقد بقيت وكأنها "خارج الخريطة"، تذكُرها الدولة فقط حين تريد استنزاف مواردها أو قمع احتجاجاتها.

أثر هذه السياسات على الهوية

إن التهميش ليس مجرد سياسة إدارية، بل جريمة في حق الهوية. فقد نشأ جيل كامل من البلوش وهو يشعر أن الدولة ليست دولته، وأن العلم الذي يرفرف فوق المباني الحكومية لا يمثلهم. صار الانتماء إلى القبيلة والهوية البلوشية أقوى من أي انتماء وطني، وصارت كلمة "الحرمان" هي العنوان العريض الذي يصف العلاقة بين بلوشستان والدولة المركزية.

لقد أنتجت هذه السياسات شعورًا جمعيًا بالخذلان، وولّدت نزعة متزايدة للرفض والتمرّد. فحين يُقصى الإنسان من المشاركة، ويُحرم من ثروات أرضه، ويُترك فريسة للتخلف والفقر، فماذا يُتوقع منه غير أن يتمرد؟

الاضطهاد

الخوف الذي يسكن البيوت

الخوف في بلوشستان ليس حالة عابرة، بل هو هواء يتنفسه الناس، وسقف يظلّل حياتهم منذ ولادتهم وحتى رحيلهم. لا تكاد تدخل بيتًا في هذا الإقليم إلا وتجد الخوف جالسًا على عتباته، يسبق الداخل والخارج، يرافق الصغير قبل الكبير، ويتسلل حتى إلى تفاصيل الحياة اليومية: في الكلام، في الصمت، في الأبواب المغلقة بإحكام، وفي العيون التي تتلفت قبل أن تنطق بكلمة.

لقد صار الخوف في بلوشستان جزءًا من الهوية المعيشية، يتوارثه الأبناء عن الآباء، كما يتوارثون لهجتهم وأمثالهم الشعبية. يكبر الطفل وهو يسمع همسات الكبار: "اخفض صوتك"، "لا تذكر الأسماء"، "لا تسأل كثيرًا"، فيتعلم أن الخطر قد يختبئ في أبسط الأسئلة، وأن الحيطان نفسها لها آذان.

الخوف من الطرقات

الخروج من البيت في بعض المناطق يشبه مغامرة غير مأمونة العواقب. الطرقات التي ينبغي أن تكون وسيلة حياة، صارت في كثير من الأحيان فخاخًا مبطنة بالخوف: خوف من نقاط التفتيش، من جنود قد يوقفونك بلا سبب، من سيارات مظلمة تختفي فجأة في الليل، من عيون تترصد كل حركة. لذلك يتعلم البلوشي أن يسير بخطوات موزونة، وأن يخفي مشاعره خلف وجه جامد لا يفضح ما في داخله.

الخوف من الكلام

في بلوشستان، ليست كل الكلمات مباحة، هناك كلمات لو قيلت في مجلس قد تفتح على قائلها أبواب البلاء، وقد تكلفه حريته وربما حياته. حتى القصائد الشعبية التي عُرفت في تاريخ البلوش بجزالة المعاني وقوة الرموز، باتت تخضع لرقابة مشددة، يخشى الشاعر أن يذكر كلمة "حرية" أو "وطن" في غير موضعها، فيُتهم بالتمرد والانفصال. صارت المجالس عامرة بالصمت أكثر من الكلام، وصار الهمس لغة رسمية يتفاهم بها الناس.

الخوف من الليل

الليل، الذي عادة ما يكون وقتًا للسكينة والراحة، صار في بلوشستان زمنًا للرعب والانتظار. كثير من حملات الاعتقال والاختفاء القسري تحدث في ساعات متأخرة، حين يُداهم الجنود البيوت، فيقتادون الرجال والشباب من أمام أعين أهاليهم. لذلك لا ينام الناس نومًا مطمئنًا، بل يظلون يقظين في أعماقهم، متأهبين لأي طرقات مفاجئة على الباب. النساء يتشبثن بأبنائهن كلما حل الظلام، والأطفال يتعلمون مبكرًا أن الليل ليس للصمت الجميل، بل لصوت الأبواب وهي تُكسر وصراخ الأمهات.

الخوف من المجهول

الأشد قسوة من الخوف من الموت، هو الخوف من المجهول. أن يخرج أحدهم من البيت ولا يعود، أن يُقتاد رجل أمام أسرته ولا يُعرف له أثر، أن يُختفي شاب في ريعان العمر ثم يُقال بعد سنوات إنه في "مكان ما"، دون محاكمة، دون خبر يقين. هذا الغياب المجهول هو الذي ينهش أرواح الناس أكثر من أي شيء آخر. فالمرأة التي تنتظر زوجها لا تعرف هل تعتبر نفسها أرملة أم زوجة لرجل حي؟ والأم التي تفقد ابنها لا تعرف هل تبكيه كميت، أم ترجوه كغائب قد يعود؟

الخوف الذي يولّد الصمت

أمام هذا الواقع، صار الصمت هو اللغة الأكثر تداولًا. صمت في البيوت، صمت في الأسواق، صمت في المدارس والجامعات. حتى وسائل الإعلام المحلية لا تجرؤ على طرح كل ما يجري. والناس، وإن كانوا يختزنون آلاف الحكايات، يفضلون أن يدفنوها في قلوبهم بدل أن يبوحوا بها. فالخوف علّمهم أن للكلمة ثمنًا قد يكون أغلى من قدرتهم على دفعه.

الخوف في وجوه الأطفال

الأطفال هم أكثر من يعكس ملامح المأساة. الطفل البلوشي لا يرسم في دفاتره بيتًا هادئًا وحديقة صغيرة، بل يرسم جنديًا يحمل بندقية، أو بيتًا تظلله سحب سوداء. ضحكاتهم غالبًا ما تُقطع بصوت انفجار بعيد، أو صراخ مفاجئ في الشارع. يكبرون وهم يحملون ذاكرة خوف لا تنمحي بسهولة، ذاكرة تجعلهم أكثر حذرًا وأسرع إلى الصمت من أي أطفال آخرين في العالم.

الخوف الذي لا يُرى

وربما أخطر ما في الخوف أنه لا يُرى بالعين، لكنه يُشعر به في كل شيء. الخوف ليس جنديًا ولا رصاصة، لكنه أثقل على الروح من كليهما. الخوف في بلوشستان مثل ظل دائم، لا يغيب حتى لو غابت الشمس.

شهادات عن الخوف

شهادة أسير سابق

في الزنزانة الضيقة لم يكن يؤلمني الجوع بقدر ما كان يفتك بي الخوف، كنت أرتجف كلما سمعت وقع الأقدام في الممر، أخشى أن يتوقف الصوت عند بابي، أن يُفتح الباب لأُقتاد إلى مصيرٍ مجهول. الخوف هناك لم يكن شعورًا عابرًا، بل كائنًا ينام معي ويستيقظ قبلي."

شهادة أم

كنت أضع أطفالي تحت جناحي في كل ليلة، أُغلق الأبواب جيدًا، ومع ذلك لا يهدأ قلبي. كانت أصوات الانفجارات البعيدة ترسم في خيالي صورًا للموت يقترب من بيتي. أكثر ما أخافني ليس موتي، بل أن يفتح أولادي أعينهم ولا يجدوني."

شهادة طالب جامعي

لم أعد أستطيع الجلوس في قاعة المحاضرات بطمأنينة، كنت أنظر إلى الباب كل دقيقة تقريبًا، متوجسًا من أن يدخلوا ويأخذوني أمام زملائي. الخوف جعلني غريبًا حتى في أكثر الأماكن ألفة."

شهادة لاجئ

حين اجتزنا الحدود، لم يكن البرد أقسى ما عانينا، بل الخوف من أن يُكتشف أمرنا. كنت أسمع أنفاسي العالية، كأنها ستفضحنا. لم أصدق أننا عبرنا إلا حين رأيت دموع أمي وهي تهمس: نجونا.

الرصاص لا يعرف الرحمة

في بلوشستان، أصبح الرصاص لغة يومية، لا تُحكى إلا بالحقائق الموجعة، ولا يُفهم إلا من عاش تحت وطأتها. الرصاص هنا لا يميز بين كبير وصغير، بين رجل وامرأة، بين مقاتل ومدني.

إنه يمرّ عبر الجبال والسهول والقرى، كأنه قانون غير مكتوب يسري على الجميع: "الحذر، وإلا ستكون الضحية التالية".

القتل كسياسة

لم يكن القتل في بلوشستان مجرد حدث عابر، بل أحيانًا كان سياسة ممنهجة. سواء في الثورات الأولى أو في الانتفاضات المتلاحقة، استخدمت الدولة القوة المفرطة لإخماد أي تحرك شعبي.

المدن والقرى التي خرجت للاحتجاج أو حاولت المطالبة بحقوقها، وجدت نفسها تحت قصف مباشر أو غارات مكثفة، ولم يقتصر الأمر على المقاتلين، بل طال المدنيين الأبرياء: رجال ونساء وأطفال.

كل جريمة قتل كانت تُسجل في ذاكرة الشعب، ويُعاد تذكيرهم بها عبر سرد الأهل والناجين، فتصبح جزءًا من التاريخ الجمعي، يروي للشباب كيف أن الأرض التي يحلمون بها ليست آمنة بعد، وكيف أن الحرية ثمنها باهظ.

الرصاص في الشوارع والمدارس

لم يكن الرصاص حكراً على ساحات المعارك، بل كان يمرّ في الشوارع والمدارس. المدارس التي من المفترض أن تكون ملاذ الأطفال، تحولت أحيانًا إلى مسرح للرصاص، والأحياء السكنية التي يجب أن تمنح الأمان، أصبحت مواقع ملاحقة ومراقبة مستمرة، هذا الاستخدام العشوائي والعنيف للأسلحة أوجد حالة من الرعب الدائم في النفوس، وجعل الأطفال يتعلمون مبكرًا أن حياتهم لا تُقدر بثمن.

الشهادة بلا شهرة

العديد من الضحايا يُقتلون دون أن يُسجل لهم اسم، وكأن الرصاص يفرض محو الهويّة.

الشباب الذين خرجوا للمطالبة بحقوق بسيطة، أو حتى للذهاب إلى الحقول أو الأسواق، كثير منهم لم يُعرف لهم أثر، وماتوا بصمت، لم يُنصفهم التاريخ الرسمي، ولم تُسجل أخبارهم إلا في قلوب أهاليهم، هذا القتل الصامت يزيد من جرح البلوش ويعزز شعورهم بالخذلان.

الرصاص في الجبال والصحارى

الجبــال والصــحارى التــي لطالمــا شــكّلت مــلاذًا للثــوار، أصــبحت أيضًــا مســـرحًا للرصـــاص القاتـــل، عمليـــات المطـــاردة والاغتيـــالات كانـــت تســتهدف المقــاتلين في أمــاكن اختبــائهم، لكنهــا غالبًــا مــا تصــيب المــدنيين أيضًــا، فتتضــاعف المأســاة، الطبيعــة القاســية التــي يمكــن أن تحمي، أصبحت في بعض الحالات مسرحًا لمطاردة لا ترحم.

الرعب المستمر

الرصاص هنا ليس حدثًا عرضيًا، بل جزء من الحيـاة اليوميـة. كـل إطـلاق نـار يُسمع في الليل يزيد من الشعور بالخوف، ويجعل كـل خطـوة خـارج البيـت محفوفة بالمخاطر. الناس يتحدثون عن أصوات الطلقـات وكأنهـا جـزء مـن الترنيمة اليومية للبلدة، ترنيمة حزينة لا تعرف النغمة.

أثر الرصاص على المجتمع

القتل والرصاص يولدان آثارًا طويلة المدى: الخـوف المسـتمر، فقـدان الثقـة، عزلة المجتمع عن محيطه، وتراجـع النشـاط الاقتصـادي والتعلـيم، فالنـاس

يترددون في الذهاب إلى أعمالهم أو مدارسهم، والجزر الصغيرة من النشاط الاجتماعي تصبح مواقع شبه خالية خوفًا من الاشتباكات أو العمليات العسكرية.

في بلوشستان، الرصاص ليس مجرد سلاح، بل رسالة: "نحن هنا، وحقوقكم بلا قيمة". لكن رغم كل هذا العنف، يبقى البلوش صامدين، يتنفسون بين القصف والصمت، ويستمرون في المقاومة، فالرصاص، مهما كثُر، لا يستطيع أن يقتل روح الأمة، ولا أن يطمس رغبتها في الحرية.

المغيّبون خلف ستار الليل

في بلوشستان، هناك فئة من الناس تختفي فجأة، وكأنها لم تكن موجودة أبدًا، وكأن الأرض نفسها ابتلعتهم. هؤلاء المغيبون ليسوا مجرد أرقام في سجل الشرطة أو أسماء على ورق، بل هم أبناء وأمهات وإخوة، تركوا وراءهم فراغًا ممتدًا من الحزن والخوف.

الاختفاء القسري: سياسة منظمة

الاختفاء القسري أصبح أداة سياسية منهجية، تُستخدم لإسكات الأصوات المعارضة وإخماد أي احتجاج، الرجل أو الشاب الذي يختفي، قد يُسحب من بيته في منتصف الليل، أمام عيون أهله، دون مذكرة توقيف، دون سبب قانوني، دون أي إشعار. وتمر الأيام والأسابيع والسنوات، والقلوب تنتظر خبراً، بينما الدولة تتجنب تقديم أي توضيح.

هذا الأسلوب لا يقتل فقط الجسد، بل يقتل الروح. كل أسرة تعرف أن قريبها حي، لكنها لا تعرف مكانه، ولا سبب احتجازه، ولا متى ستراه مرة أخرى. يعيش الناس في حالة قلق دائم، فالأبناء يتعلمون الصمت، والآباء يشحذون أعصابهم للحظة كل طرق فيها الباب في الليل.

الليل، ساعة الخوف الأكبر

الليل في بلوشستان ليس وقتًا للسكينة، بل وقت للاختفاء. غالبًا ما تحدث عمليات القبض في ساعات متأخرة، حين يكون الناس غارقين في نومهم، أو في أعمق درجات التعب بعد يوم طويل. النساء يستيقظن على طرقات مفاجئة، والأطفال يتعلمون أن أي أصوات مفاجئة قد تعني فقدان الأب أو الأخ، كل ليلة تمر تزيد من ثقل الخوف، وتزرع في النفوس شعورًا بالوحدة والضعف.

الآثار النفسية للمغيبين

العائلات التي فقدت أحد أفرادها تعيش ألمًا مضاعفًا. الاختفاء القسري ليس مجرد غياب جسدي، بل هو ألم نفسي دائم، شعور بعدم الأمان، وشك مستمر بأن أي فرد آخر قد يكون هدفًا لاحقًا. الأطفال يكبرون وهم يترجمون هذا الغياب إلى خوف مزمن، وأحيانًا إلى كراهية مختلطة بالألم، تجاه من يعتقدون أنه سبب هذا الاختفاء.

أمثلة ووقائع

تقول تقارير حقوق الإنسان إن آلاف الأشخاص اختفوا قسريًا في بلوشستان منذ عقود، كثير منهم لم يُعرف لهم أثر حتى اليوم. هؤلاء المغيبون لم يُتهموا، لم يُحاكموا، ولم يُسمح لعائلاتهم بمحاكمة عادلة، وأحيانًا كان يتم الإعلان عن موتهم بعد سنوات طويلة، غالبًا في ظروف غامضة، أو تُعاد جثثهم مشوهة كتحذير للآخرين.

1. قضية دين محمد بلوش (2009)

دين محمد، طبيب يعمل في مستشفى بمنطقة خضدار، خرج ذات ليلة لخدمة مرضاه، لكنه لم يعد. في 28 يونيو 2009، اختُطف من مقر عمله على أيدي قوات يُعتقد أنها تابعة للأمن الباكستاني. منذ ذلك اليوم، لم تره عين، ولم تسمع عنه أذن. بقيت عائلته أكثر من 15 عامًا تركض بين المحاكم والمظاهرات، ترفع صوره في مسيرات الأمهات الباكيات، لكن لا جواب سوى الصمت. لقد صار دين محمد رمزًا لكل البلوش المخفيين: وجه يطلّ من اللافتات، واسم يُتلى في الدعاء، وقضية شاهدة على قسوة زمنٍ يبتلع أبناءه.

2. طالب يُختطف من قاعة الدرس (2025)

في مارس 2025، كان الطالب "خليل خالد" جالسًا في قاعة بجامعة بلنيجور يحمل كاميرته لتوثيق نشاط طلابي. فجأة دخل رجال بملابس مدنية، اقتادوه أمام زملائه، كأنهم ينتزعون زهرة من وسط البستان. لم يكن في يده سوى كتاب وعدسة، لكنهم تعاملوا معه كأنه يملك جيشًا جرّارًا. غاب خليل لأشهر، وعاد فيما بعد بجسد منهك ونظرات تائهة، ليحكي بصوت مرتجف: "لقد مات الكثيرون في الداخل، وأنا عدت حيًّا بجسد ميت".

3. أبن يُخطف أمام أبيه (2024)

في أكتوبر 2024، كان "أنيس بركات" عائدًا من السوق مع والده في مدينة تربت. توقفت عربة عسكرية أمامهما، نزل منها جنود مدججون بالسلاح، أخذوا الابن أمام عيني أبيه. لم يملك الأب سوى أن يصرخ ويستجديهم: "دعوه، إنه ما زال صغيرًا، لم يرتكب شيئًا!"، لكن الرد كان ضربة على وجهه دفعته أرضًا، ثم انطلقت السيارة وابنه بداخلها. بعد أيام عاد الأب وحده إلى البيت، حاملاً دموعه بدلًا عن ابنه، وأخبر أمه: "لقد أخذوه مني، كما تُسرق الشمس من نهارها".

4. جثث بعد الغياب (2025)

في فبراير 2025، اهتزت قلوب أهالي بلوشستان على خبر العثور على خمس جثث في ضواحي كويتا وأواران. كان أصحابها قد اختفوا منذ ديسمبر الماضي، بين طلاب ومزارعين. حين أُعلن عن أسمائهم، خرجت أمهاتهم يركضن إلى المشرحة، يتمنين أن لا يكون الخبر صحيحًا، لكن الأغطية البيضاء فضحت الحقيقة. كان بينهم "حافظ محمد طاهر"، شاب لم يتجاوز 22 عامًا، كان يحلم أن يصبح معلمًا. عاد إليهم جثة هامدة، كأن حلمه قد قُبر معه.

5. يوميات الخوف (2021)

تقرير حقوقي عام 2021 وثّق 68 حالة إخفاء قسري في شهر واحد فقط. بعضهم أطفال صغار خُطفوا مع آبائهم، وبعضهم نساء اقتيدن كوسيلة ضغط على أزواجهن أو أقاربهن. هذه الأرقام ليست مجرد إحصاءات باردة، بل هي حكايات عائلات مكسورة، أطفال ينامون وهم يسألون: "متى يعود أبي؟"، وأمهات يحملن صور الأبناء بدلًا عن احتضانهم.

صوت الأهالي

الأهالي الذين يختبرون هذه المعاناة يقولون إن الألم الأكبر ليس فقدان الأحبة، بل الصمت الذي يحيط بهم. فالجهات الرسمية تتجنب الإجابة، والإعلام غالبًا يخشى التطرق للموضوع، لذلك تصبح القصص محصورة في الذاكرة المحلية، تُنقل من جيل إلى جيل، وتُشكل جزءًا من الهوية الجمعية: هوية شعب يعرف أن اختفاء أحد أبنائه قد يحدث في أي لحظة.

التأثير على المجتمع

الاختفاء القسري ليس مجرد جريمة فردية، بل له تأثيرات واسعة على المجتمع كله. الناس يصبحون أكثر تحفظًا، أقل ثقة، وأكثر عزلة، الأنشطة الاجتماعية تتراجع، المدارس والمراكز الثقافية تغلق أبوابها أو تقل فعالياتها، والمجتمع بأكمله يدخل في دائرة من الصمت والخوف.

المغيبون خلف ستار الليل هم شاهد على وحشية السلطة والصمت الدولي، وهم رمز للمعاناة المستمرة في بلوشستان. لكن، رغم كل شيء، تبقى الذكريات حية في قلوب أهاليهم، وتظل القصص تُروى، كأنها شمعة صغيرة تنير طريق العدالة في ظلام الخوف الطويل.

الاضطهاد كسياسة يومية

في بلوشستان، الاضطهاد ليس مجرد حادثة عرضية، بل هو نسق يومي يسري في تفاصيل الحياة، يشمل كل شيء: من المدرسة إلى مكان العمل، ومن البيت إلى الشارع، ومن اللغة إلى الموروث الثقافي، إنه اضطهاد ممنهج، يُمارس على الشعب بطريقة تجعله يعيش تحت وطأة الخوف والحرمان المستمرين.

الاضطهاد في المؤسسات الحكومية

البلوش غالبًا ما يُستبعدون من الوظائف الحكومية أو يُحرمون من المناصب العليا. كل مؤسسة رسمية تبدو وكأنها حصنًا للآخرين، بينما يُترك البلوش في هامشها، غالبًا في وظائف بسيطة أو مؤقتة لا تضمن لهم أي استقرار أو كرامة. هذا الإقصاء المتكرر يزرع شعورًا دائمًا بأن الدولة لا ترى فيهم مواطنين متساوين، بل أقلية يجب تقييد حقوقها.

الاضطهاد الاقتصادي

ثروات بلوشستان الطبيعية، من الغاز والمعادن والنفط، تُستخرج بشكل رئيسي لصالح مناطق أخرى، بينما يبقى الإقليم محاصرًا بالفقر المدقع. لا مشاريع تنموية حقيقية، لا بنية تحتية قوية، لا مستشفيات مجهزة. الأسر تكافح لتأمين الغذاء والماء، بينما الخيرات تُصدر وتذهب بعيدًا. هذا الفقر المُفرض ليس طبيعيًا، بل هو أداة من أدوات اضطهاد السكان.

الاضطهاد التعليمي والثقافي

اللغة والثقافة جزء من الهوية، والاضطهاد هنا يتعدى السياسة والاقتصاد ليصل إلى جذور الهوية، المدارس غالبًا لا تُدرّس اللغة البلوشية، والمناهج تميل إلى غرس ثقافة مركزية بعيدة عن تاريخ الإقليم، هذا يؤدي إلى شعور مستمر بالغربة داخل وطنهم، ويجعل الأطفال والكبار يشعرون بأن ثقافتهم ووجودهم معرضان للتهميش.

الاضطهاد الاجتماعي والسياسي

أي محاولة للتعبير عن الرأي أو المطالبة بالحقوق تُقابل بالقمع. الاجتماعات العامة، الاحتجاجات السلمية، وحتى الحملات الإعلامية المحدودة، غالبًا ما تُكبح بسرعة. هذا الضغط يولد حالة مستمرة من الخوف والانعزال، ويُجبر الناس على الصمت في حياتهم اليومية.

الاضطهاد النفسي والمعنوي

أكثر أشكال الاضطهاد إيلامًا هو النفسي. عندما يُضطر الناس للصمت أمام الظلم، ويُحرمون من حقوقهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فإن الشعور بالخذلان يتغلغل في النفوس، يصبح كل فرد مرعوبًا، كل أسرة متوجسة، كل حي متوتر. هذا الاضطهاد المستمر يزرع في المجتمع إحساسًا بالعجز، لكنه أيضًا يزرع بذور الصمود في من استطاع أن يصمد.

أمثلة على الاضطهاد اليومي

القرى التي تُحرم من المشاريع الصحية الأساسية، مما يجعل السكان يعانون من أمراض يمكن علاجها بسهولة في أماكن أخرى، الشباب الذين يُسجنون لمجرد التعبير عن رأيهم السياسي أو الوطني.

الصحفيون الذين يواجهون المضايقات أو الاعتقال إذا حاولوا نقل أخبار الإقليم للعالم الخارجي.

النساء اللواتي يُواجهن القيود في حياتهن اليومية، سواء على مستوى التعليم أو العمل، ويصبحن ضحايا مضاعفة للاضطهاد الاقتصادي والاجتماعي.

الاضطهاد في بلوشستان ليس استثناء، بـل قاعـدة حيـاة، كـل يـوم يحمـل معه تحديًا جديدًا، وكل قرار صغير أو حركة قد تُعتبر مخالفة.

ومع ذلك، هناك صمود لا ينكسر، وإرادة مستمرة للعـيش والتمسـك بالهويـة والكرامة، رغم كل شيء، فالاضطهاد اليومي لـم يُطفـئ روح البلـوش، لكنـه جعلهـم أكثـر يقظـة، وأكثـر إدراكًـا لقيمـة الحريـة، وأكثـر تمسـكًا بأرضـهم وحقهم في الحياة الكريمة.

أصوات مكبلة بين الحياة والموت

في بلوشستان، ليس هناك صوت يعلو فوق صوت الخوف والاضطهاد. أصوات الناس مقيدة بقيود الجوع والفقر والقمع، وكأن حياتهم معلقة بين الحياة والموت، بين أن يحلموا بحرية وبين أن يختنقوا بصمتهم. هذه الأصوات المكبلة هي شهادة حية على معاناة شعب لم يُسمع صوته بعد للعالم.

الأصوات المفقودة

الكثير من هذه الأصوات لا تُسمع إلا في البيوت المغلقة، أو في القرى البعيدة التي لا يصلها الإعلام، أو في صفحات الذكريات التي يحاول الناس أن يخبئوها، هي أصوات تقول: "أنا موجود، لكن العالم لا يريد أن يعرفني". أصوات أطفال لم يكملوا دراستهم، نساء فقدن أزواجهن، شباب سُجنوا بلا سبب، كلهم مكبلون بهذا الصمت القسري.

الحياة المعلقة بين الخوف والأمل

يعيش البلوش حياة معلقة؛ صباحهم لا يعرف السلام، وليلهم لا يحمل الأمان. كل يوم يواجهون مخاطر جديدة، من الاغتيالات إلى الاعتقالات، ومن القصف إلى التفجيرات.

ومع ذلك، يواصلون حياتهم بطريقة ما، يتنقلون بين الخوف والأمل، بين الحزن والإصرار، هذا التوازن الهش يجعل من حياتهم شهادة مستمرة على صمود الروح الإنسانية رغم كل الصعاب.

الأصوات التي تحاول المقاومة

هناك من يحاول أن يجعل صوته مسموعًا رغم القيود، صحفيون محليون، ناشطون مدنيون، أدباء وشعراء يكتبون في دفاترهم ما لا يجرؤون على نطقه، هذه الأصوات تمثل محاولة لتحدي الصمت المفروض، لتوثيق المأساة، ولحفظ ذاكرة شعب يرفض أن تُمحى قصته.

الاختناق بالظلم

الأصوات المكبلة ليست فقط بسبب الخوف الشخصي، بل بسبب الظلم الذي يحيط بالجميع، القوانين، السياسات، الممارسات الاقتصادية والاجتماعية، كلها تشارك في كبت الأصوات. المواطن في بلوشستان يعرف أن أي خطوة خارج الحدود المسموح بها قد تكون مكلفة بحياته أو بحرية أحبائه، هذا الشعور بالاختناق يولد حالة عامة من الصمت والخوف، لكنه أيضًا يزرع بذور الصمود والإبداع في أماكن غير متوقعة.

أصوات بلوشستان المكبلة بين الحياة والموت هي أكثر من مجرد صوت الفرد؛ هي صوت الشعب كله، صوت الأرض والجغرافيا والثقافة والتاريخ. هي شهادة حية على أن الحرية ليست مجرد كلمة، بل حق يجب أن يُحفظ، وأن الحياة الكريمة ليست ترفًا بل حق لكل إنسان. ومع كل صوت مكبل، هناك روح لا تقبل أن تموت، هناك إرادة مستمرة لمقاومة الصمت، وهناك أمل في أن تسمع هذه الأصوات يومًا، ويُكتب لشعب بلوشستان ما استحقه منذ زمن بعيد: الحياة الكريمة والحرية الحقيقية.

ومضات في آخر الطريق

الذاكرة التي لا تموت

ليست الذاكرة صندوقًا قديمًا نُغلقه ونُخفيه في ركنٍ معتم من البيت، بل هي جذور متشبّثة بالأرض، تنمو في عمق التربة كلما حاول أحدهم أن يقتلعها. هي دمعةٌ علقت في عين أمّ لم تجفّ رغم مرور السنين، وصوت أبٍ كان يطرق أبواب السجون كل يومٍ يسأل: "أين ابني؟"، هي صورة معلّقة على جدار بيتٍ قديم تَشظّت جدرانه من الإهمال، لكن الصورة بقيت كما هي، شاهدةً أن من غاب لم يُمحَ من القلب.

لقد حاولت السلطات أن تطمس هذه الذاكرة بكل الطرق: بالإنكار تارة، وبالتهديد تارة، وبإغراق الناس في دوامة الفقر والجهل لعلهم ينسون. لكنهم لم ينسوا. الذاكرة هنا لا تُمحى بالقوة ولا تُذوَّب بالخوف، بل على العكس، كلما اشتدّ القمع ازداد الناس إصرارًا على الحفظ، وكأنهم يقولون: "لن نسمح أن تُمحى أسماء أبنائنا من صفحات التاريخ، حتى لو مُحيَت من السجلات الرسمية".

حين يُغلق الباب على عائلة تبحث عن ابنها المُختفي قسرًا، لا تنتهي الحكاية بدمعة ولا بشكوى. بل تبدأ رحلة طويلة، حيث يصبح اسم المفقود نشيدًا يوميًا، يُردّد في مجالس النساء، وتُلقّن تفاصيله للأطفال كما تُلقّن الأناشيد الشعبية. وحين يكبر هؤلاء الأطفال، يحملون القصة كما لو كانت

جزءًا من دمهم، فيتحول المفقود من شخصٍ غائب إلى ذاكرة حيّة تعيش في الأجيال.

إنّ الذاكرة البلوشية لم تكن مجرد رواية عن الظلم، بل مقاومة حقيقية له. فهي التي حمت هوية الشعب من الذوبان، وهي التي جعلت من كل جرح شاهدًا لا يموت. كل جدار في بلوشستان يعرف حكاية، وكل ركن في بيتٍ قديم يحمل سرًّا، وكل طريق صحراوي شهد دمًا سُفك يتحول إلى أرشيف لا يُمحى.

ولعلّ أجمل ما في هذه الذاكرة أنها لم تتوقف عند حدود الألم فقط، بل حملت معها بذور الأمل. فالأم التي تنتظر عودة ابنها ليست فقط رمزًا للوجع، بل رمزًا لإصرار عجيب على ألا تنكسر الروح. الذاكرة هنا تحولت إلى طاقة، إلى نارٍ تحت الرماد، إلى وعدٍ بأن الظلم مهما طال لن يقدر أن يُغلق هذا الباب إلى الأبد.

إن الأمم التي تفقد ذاكرتها تموت، لكن بلوشستان لم تمت. لأنها حملت ذاكرتها معها كزادٍ للطريق، تضعها في الصدور لا في الأوراق، تحفظها في القلوب لا في الأرشيفات الرسمية. وهكذا تبقى الذاكرة حيّة، أقوى من الرصاص، وأبقى من الدمار، وأشدّ رسوخًا من كل محاولات الطمس.

الإيمان بالقدرة على النهوض

قد يظنّ البعض أن الشعوب المقهورة تنهزم إلى الأبد، لكنها في الحقيقة تُخفي في أعماقها قدرة عجيبة على النهوض من تحت الركام، وكأن كل لحظة ألم تُولد فيها بذرة صمود جديدة. إن الخوف الذي عاشه البلوش، والاضطهاد الذي عانوا منه، لم يكن ليقتل فيهم روح التحدي، بل صار جزءاً من تكوينهم النفسي والجماعي، جزءًا من جينات المقاومة التي تنتقل عبر الأجيال، حتى في صمت الظلام القاسي.

حين يفقد الإنسان كل شيء تقريبًا، لا يبقى أمامه إلا أن يتمسّك بما تبقّى من كرامته، وأن يبحث عن نافذة صغيرة يدخل منها النور، نافذة أملٍ لم يعرفها من قبل، لكنه وجد نفسه قادرًا على أن يتشبّث بها بكل ما أوتي من قوة. النهوض هنا ليس مجرد فعل جسدي، بل هو فعل روحي، فالمقاومة تبدأ من الداخل، من لحظة القرار أن لا يكون الألم نهاية، ومن إيمان عميق بأن الحياة تستحق الصمود. لقد علّمنا التاريخ أن الأمم لا تموت بالخذلان، بل تموت حين تستسلم له. وما دام في قلوب الناس بقية رجاء، فإن القدرة على النهوض تبقى ممكنة، ولو بعد حين. ومن هنا، تصبح كل خطوة صغيرة نحو الحرية، وكل فعل مقاوم مهما بدا هزيلاً، تعبيرًا عن إرادة لا تُقهر، عن حياة تختار أن تستمر رغم كل الظلام، عن شعلة صغيرة في قلب الليل الطويل ترفض أن تنطفئ، مهما حاولت الأيدي أن تسحقها. إن النهوض لا يعني تجاهل الجراح أو إنكار الألم، بل هو احتضان الألم كجزء من الطريق، واستلهام القوة من الجراح نفسها، لأن كل كسر هو درس، وكل

فقدان هو بداية فرصة جديدة، وكل دمعة محفورة على وجوه الأمهات، هي سجل خالد للصمود الإنساني.

المستقبل الذي ينتظر

لا يمكن لشعب أن يبني غده وهو يجهل ماضيه أو يتجاهل حاضره. إن المستقبل الذي ينتظر بلوشستان ليس مكتوبًا سلفًا، بل هو نتاج للوعي والإرادة، حصيلة لتراكم النضالات والصمود والمقاومة، وسجل لتجارب الأجيال التي رفضت أن تُمحى. حين يُدرك الناس أن التهميش الذي عاشوه لم يكن قدرًا محتومًا بل نتيجة سياسات بشرية قابلة للتغيير، يبدأ الوعي بالتحرّك، ويبدأ التفكير بجدية في كيفية صياغة مستقبل مختلف، مستقبل يحقق العدالة الاجتماعية، ويضمن لكل فرد حقه في الحياة الكريمة، ويحوّل الألم

إلى قوة، واليأس إلى فرصة، والقهر إلى إرادة. المستقبل ليس رفاهية، بل هو استحقاق. وبلوشستان، بثرواتها الطبيعية الهائلة وبشبابها المتطلّع للحرية، قادرة أن تتحول من هامش مُهمّش إلى مركزٍ فاعل، إذا ما توافرت الإرادة والوعي الجماعي. لكن هذا لن يحدث ما لم يُكسر جدار الخوف، وما لم يُفتح المجال أمام المشاركة الحقيقية في تقرير المصير، وما لم يُدرك الناس أن القوة تكمن في الاتحاد والصبر والعمل المشترك. إن الطريق طويل، لكنه مليء بالفرص، والمستقبل دائمًا يُولد من رحم المعاناة، من عزيمة الذين رفضوا أن يكونوا مجرد ضحايا للظروف، ومن ثقة أولئك الذين يعرفون أن التغيير يبدأ بخطوة صغيرة، وبفكرة تتحول إلى عمل، وبعمل يتحول إلى واقع. ومن عرف تاريخ الإسلام أدرك أن المسلم لا يركع إلا لله تعالى.

ومضة الرجاء

الرجاء هو ما يجعل الأمهات ينتظرن أبناءهنّ المخفيين منذ سنوات، وما يجعل الشيوخ يتحدثون بثقة عن حرية قادمة رغم أنهم عاشوا أعمارهم في القيود. الرجاء ليس مجرد مشاعر رقيقة، بل هو قوة داخلية ترفض الاستسلام، وتقاوم الانكسار، وهو الدافع الذي يجعل الشعوب تستمر في مقاومة الظلم، حتى حين يراهم العالم قد استسلموا.

إن الشعوب التي تفقد الرجاء تصبح أشبه بجسد بلا روح، جسد يتحرك بلا معنى. لذلك فإن الحفاظ على الرجاء يُعدّ من أعظم أشكال المقاومة، لأنه يجعل الفرد ينهض رغم الألم، ويقاوم رغم القهر، ويستمر رغم اليأس. فكل دعاء يُرفع في ليلٍ طويل، وكل نظرة أمل في عيون الأطفال، وكل ابتسامة في وجه القهر، هي في حقيقتها فعل مقاومة ضد محاولات الطمس والإلغاء، شهادة على أن الحياة لا يمكن أن تُقهر بالكامل، مهما بلغت قسوة الظروف. وكفى بالرجاء عبادة تصنع المواساة والصبر ويشتد معها اليقين.

ومضة الحرية

الحرية ليست شعارًا سياسيًا فحسب، بل هي جوهر إنسانية الإنسان، ولبّ الحياة الحقيقية، ومرآة الكرامة. ومن دونها يتحوّل الوجود إلى مجرد بقاء جسدي خاوٍ من المعنى، إذ يصبح الإنسان حينها آلة لا أكثر، يتحرك بلا هدف، ويعيش بلا روح. لقد دفع البلوش ـ مثل كثير من الشعوب المقهورة ـ ثمنًا باهظًا في سبيل الحرية، ووقفوا في مواجهة السجون والرصاص والتهميش، لأنهم أيقنوا أن الحياة بلا حرية ليست سوى قيد طويل، لا يستحق العيش.

الحرية تُشترى بالثبات، وتُحفظ بالتضحيات، وتُصان بالوعي. وكلما اشتد القمع، ازدادت قيمة الحرية في النفوس، وحين يعلو صوتها في النهاية، فإنها لا تكون هدية من أحد، بل استحقاقًا دفع الشعب ثمنه غاليًا، وكانت

دماؤهم خير دليل على أن الحرية ليست رفاهية، بل هي وجود حقيقي، وشرط أساسي للكرامة الإنسانية. الحرية هي الأفق الذي ترى فيه الروح نفسها، والسماء التي يرفرف تحتها قلب الإنسان، والنور الذي لا يمكن لقيد أن يطفئه.

ومضة الإنسان

في خضمّ الحديث عن السياسات والصراعات، قد ننسى أن جوهر كل شيء هو الإنسان. الإنسان الذي خاف، والذي اختفى، والذي صرخ، والذي قاوم. الإنسان الذي حُرم من حقه في التعليم والعمل والحياة الكريمة، والذي ظل يحلم بأن يرى غداً أفضل، ويزرع بذور المستقبل في أرض قاحلة. إن اختزال القضية في صراع سياسي فقط يُفقدها بعدها الإنساني، بينما هي في حقيقتها قضية إنسان يبحث عن معنى وجوده في أرضه، ويصر على أن يكون له وجود وحق ومصير.

إن كل ما كُتب في هذا الكتاب هو وفاء للإنسان أولًا: ذاك الذي عاش الظلم، وذاك الذي ما زال يأمل، وذاك الذي سيأتي يومًا ليقرأ هذه الصفحات فيجد فيها شاهدًا على معاناة أجداده، وبوصلةً لمستقبله. الإنسان هو محور القضية، ومن أجله تُكتب الحكايات وتُخاض النضالات، ومن أجله أيضًا يُزرع الرجاء، ويُصان الحق، ويُبنى المستقبل. كل دمعة، كل صرخة، كل ابتسامة في وجه الألم، هي شهادة على روح الإنسان التي لا تنكسر، وعلى القدرة

الخفية التي تدفع الشعوب دائمًا نحو النهـوض، مهمـا طـال الليـل، ومهمـا اشتدت العواصف.

الخاتمة

هكذا تنتهي رحلتنا بين جبال بلوشستان الشامخة وصحاريها الممتدة وبحارها الحزينة، رحلة لم تكن مجرد جغرافيا نرسمها أو تاريخ نسرده، بل كانت رحلة في قلب أمة تبحث عن الحياة الكريمة وسط ركام الخوف والخذلان.

لقد حاولتُ أن أفتح نافذة على هذا الإقليم المظلوم، أن أزيح بعضًا من غبار التهميش عن وجهه، وأن أكتب شيئًا عن حكايات أهله التي تتوزع بين الألم والصبر، بين الحلم والخذلان، بين الجراح والرجاء.

قد لا تكفي الصفحات لإيفاء هذا الإقليم حقه، ولا تسع الكلمات لتضميد جراحه، لكنني آمنت أن الكلمة شهادة، والكتابة موقف، وأن الصمت في وجه الظلم خيانة للتاريخ والإنسانية.

بلوشستان... ليست أرضًا بعيدة عنّا، إنها مرآة لواقع أمة بأكملها، كلما تخاذلنا أمام قضاياها، تَصَدَّعنا أكثر في قلوبنا. هي الأرض التي تملك كل شيء من ثروات وخيرات وموقع، لكنها حُرمت أهم ما يطلبه الإنسان: الكرامة والحرية والأمان. أرض حُرمت عدالة الإسلام ونفوذه العظيم.

إن ما أردتُ أن أوصله من خلال هذا الكتاب ليس مجرد وقائع تُقرأ ثم تُطوى، بل صرخة في ضمير كل قارئ:

أن يتذكر أن هناك أمة تُمحى هويتها.

أن يدرك أن الاحتلال قد يرحل بشكله القديم، لكنـه يعـود بأشـكال جديـدة أشد قسوة.

أن يفهم أن المقاومة ليست خيارًا للتـرف، بـل قـدر الشـعوب التـي أبـت أن تُدفن حية.

وفي الختـام، تبقـى بلوشسـتان قصـة مفتوحـة، فإمـا أن تُكتـب نهايتهـا بالعدل والحرية كما يجب على المسـلمين، أو تظـل جرحًـا نازفًـا في جسـد أمتنا المسلمة.

ولعل كلماتي هذه تكون لبنة صغيرة في جدار الوعي، وصرخة في وادٍ قـد يردّدها من يأتي بعدي، حتى يأتي يوم تُشرق فيه شمس الحرية على هذه الأرض، وتعـود لجبالهـا وصـحاريها وبحارهـا روح الحيـاة الكريمـة التـي تستحقها.

تم بحمد الله تعالى.

الفهرس

الإهداء ٤
مقدمة "وصل" ٥
مقدمة فتاة حِسان، مي........ ٧
أرض تقسمها الغرباء وبقيت جراحها بلا شفاء ٨
إقليم شاسع لا يسكنه إلا الصمت ٩
تضاريس متناقضة........ ١٣
الجبال: صرخات صامتة من حجر ١٤
الصحارى عطش لا يرويه سوى الصبر........ ١٥
السواحل بحرٌ من دموع ١٦
التناقض المرير: تجمع تضاريس بلوشستان بين كل المتناقضات ١٩
الطبيعة والإنسان: حكاية صبر واحد ٢٠
ثروات في الأغلال ٢١
الغاز: نار تشتعل بعيدًا عن أهلها ٢٢
الذهب والنحاس كنوز مرهونة للغريب ٢٣
جوادر: البحر الذي صار نافذة للعالم وسجنًا لأهله........ ٢٥
بين الأرض والإنسان: ثروات لا تُطعم جائعًا........ ٢٦
مفارقة مُرّة: الثروة سبب القهر........ ٢٧
صرخة الأرض ٢٧
جذور في الرمال و تاريخ شعبٍ لا يُنسى........ ٢٨
الهوية البلوشية........ ٣٠
اللغة........ ٣١
العادات........ ٣٢
الصمود ٣٣
التاريخ السياسي المبكر ٣٤

الإمارات البلوشية ٣٤
البلوش والتجارة ٣٥
الأطماع الخارجية ٣٦
إرهاصات الانقسام ٣٧
التاريخ يكتب بالدم ٣٨
الاحتلال البريطاني والتقسيم ٣٩
المعاهدات والتحالفات ٣٩
خرائط غريبة، حدود غير طبيعية ٤٠
المقاومة المستمرة ٤٠
إرهاصات تقسيم ما بعد الاستقلال ٤١
أثر الاحتلال والتقسيم على الهوية ٤٢
بداية الثورات والتمردات ٤٣
شرارة عبد الكريم خان ٤٣
قسوة القمع وضعف الإمكانات ٤٤
إرث لا يموت ٤٥
بين الرمزية والواقع ٤٥
سياسة التهميش والإقصاء ٤٦
إقصاء في مؤسسات الدولة ٤٧
ثروات تُنهب وأفواه جائعة ٤٨
إنماء الآخرين وتخلّف البلوش ٤٩
أثر هذه السياسات على الهوية ٤٩
الاضطهاد ٥١
الخوف الذي يسكن البيوت ٥١
الخوف من الطرقات ٥٢
الخوف من الكلام ٥٢
الخوف من الليل ٥٣

الخوف من المجهول ٥٣
الخوف الذي يولّد الصمت ٥٤
الخوف في وجوه الأطفال ٥٤
الخوف الذي لا يُرى ٥٥
شهادات عن الخوف ٥٥
شهادة أسير سابق ٥٥
شهادة أم ٥٦
شهادة طالب جامعي ٥٦
شهادة لاجئ ٥٦
الرصاص لا يعرف الرحمة ٥٧
القتل كسياسة ٥٧
الرصاص في الشوارع والمدارس ٥٨
الشهادة بلا شهرة ٥٨
الرصاص في الجبال والصحارى ٥٩
الرعب المستمر ٥٩
أثر الرصاص على المجتمع ٥٩
المغيّبون خلف ستار الليل ٦١
الاختفاء القسري: سياسة منظمة ٦٢
الليل، ساعة الخوف الأكبر ٦٣
الآثار النفسية للمغيبين ٦٣
أمثلة ووقائع ٦٤
1. قضية دين محمد بلوش (2009) ٦٤
2. طالب يُختطف من قاعة الدرس (2025) ٦٥
3. أبن يُخطف أمام أبيه (2024) ٦٥
4. جثث بعد الغياب (2025) ٦٦
5. يوميات الخوف (2021) ٦٦

صوت الأهالي ٦٧
التأثير على المجتمع ٦٧
الاضطهاد كسياسة يومية ٦٨
الاضطهاد في المؤسسات الحكومية ٦٨
الاضطهاد الاقتصادي ٦٩
الاضطهاد التعليمي والثقافي ٦٩
الاضطهاد الاجتماعي والسياسي ٧٠
الاضطهاد النفسي والمعنوي ٧٠
أمثلة على الاضطهاد اليومي ٧١
أصوات مكبلة بين الحياة والموت ٧٣
الأصوات المفقودة ٧٣
الحياة المعلقة بين الخوف والأمل ٧٣
الأصوات التي تحاول المقاومة ٧٤
الاختناق بالظلم ٧٥
ومضات في آخر الطريق ٧٦
الذاكرة التي لا تموت ٧٦
الإيمان بالقدرة على النهوض ٧٨
المستقبل الذي ينتظر ٧٩
ومضة الرجاء ٨٠
ومضة الحرية ٨١
ومضة الإنسان ٨٢
الخاتمة ٨٤

وَصلُ

لأخبار المستضعفين من بني الإسلام

حِسّان